



أنور سالم سلوم

نساء خارج المألوف









دار الحكمة
للطباعة والنشر









نساء خارج المألوف

في القرن العشرين

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار الحكمة
للطباعة والنشر

دمشق - سورية - بناء سادكوب - الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢١٢٩٦٧ - ٢٣٠٧٣٨

ص. ب ٧٨٧ - دمشق

ص. ب ١١٣/٥٧٢٠ بيروت

أنور سالم سلوم

نساء خارج المألوف
في القرن العشرين

دار الحكمة
للطباعة والنشر



1- أسرار الحريم في عهد السلاطين
2-«السلطانة الكبيرة»: الواقع والخيال

■■عفى عليه الزمن!.. كان سراً لا يجرؤ عليه أحد. كان ذكره يثير خيال الجمال والفتنة موشى بالعذاب والنقمة!.. من كان يدري أنه سيصبح هذا «الحرم المقدس» مأساة وسخرية!!■■

سلاطين تركيا!.. هؤلاء الذين ملؤوا بالرعب قلب أوروبا دهراً طويلاً، واندفعوا وفخر النصر في ركابهم، فشيدوا امبراطورية ضخمة روى التاريخ ذكرى، ووعى مجدها، سرعان ما انصرفوا إلى شهواتهم وأحقادهم. وهكذا كما روى التاريخ مجد فتوحاتهم روى أيضاً عار مظالمهم. وكان حريم السلطان في تركيا بعض الأسرار العجيبة التي ظلت الأستار مسدلة عليها إلى أن نهضت تركيا نهضتها الحديثة بزعامة كمال أتاتورك فانقشع الحجاب عن «الحريم» وعما أوحاه الخيال بشأنه وشأن قاطنيه التعساء.. وحل الباحثون محل الروائيين في الكتابة عن قصر «سراجيلو» قصر السلطان وموطن الأسرار من قديم الزمان.

وقد وضع المستشرق الأوروبي الأستاذ «بنزر» كتاباً طريفاً عن الحريم بعد أن أنفق جهداً طويلاً في البحث واجتلاء الحقائق من بين الخرافات روى فيه الكثير من الحقائق والأسرار.

ويقع قصر سراجليو على التل المسمّى باسمه والمطل على خليج البوسفور وحوله مجموعة من المنشآت الحكومية بينها مدرسة

حربية وأكثر من اثني عشر مسجداً وعشرة مطابخ ومخبزان وطاحونة دقيق ومستشفيات وصف حمامات ومخازن وملاعب ومبان أخرى. ولم يكن للشخص العادي أن يعرف ما في تلك المباني. وخاصة ما يسمى بـ «الحرملك» وهو مستعمرة النساء مع حراسهم من الأغوات. ولم يكن «الحرملك» مكان نساء يتسكعن في حجرات من الرخام يرتجين ما يدخل السرور على قلب سيدهن، بل كان - كما يقول «بنزر» في كتابه - عالماً صغيراً مستقلاً تحكمه بكل حزم وعناية يد امرأة لا رجل، ولكل امرىء فيه واجبه الخاص يؤديه. وعليه أن ينفذ تعليمات وأوامر قد تكون في كثير من الأحيان في قسوتها للأوامر والتعليمات في أحد الأديرة.

ولكن أي دير هذا الذي به رئيس كإله الحرب، وحاكمته ربة دلال وجيشه خصيان معدومو الإرادة!.

1200-300 امرأة

وكان الحريم يحوي في أوج عظمته ما بين 300 و 1200 امرأة. وكانت الملكة الوالدة هي الحاكمة المطلقة فيه ومعها رئيس الخصيان الأسود أو «كتسلر آغا» في وظيفة كبار النظار، ويتلو هذين الاثنين اللذين كانا في نزاع دائم على السلطة جمهور من الموظفين للإشراف على كل صغيرة وكبيرة من حياة الجواري المفعمة بالمؤامرات. وكان عقاب الخطأ في كثير من الأحيان الإغراق الوحشي داخل الأكياس.

وأعظم ما تطمع فيه الجارية هو أن تبلغ مركز «إقبال» أو الفتاة المحظية. فعندما يصل إليها المنديل الرمزي، تبلغ هذه المرتبة، ويصبح عليها أن تراعي النظام الخاص في دخولها، فتجثو ثم تحبو إلى أعلا حتى تصل إلى مستوى صاحب الجلالة. على أن عليها

بعد ذلك أن تبذل غاية جهدها لبلوغ مرتبة أخرى هي مرتبة «الكادن» فتصبح واحدة من أربع زوجات دائمات. وقد حازت «روكسلانا» الجارية الروسية هذا المنصب العالي فأصبحت زوجة السلطان سليمان خلصت من جميع منافسيها في الحب والسطوة. وكان زمام السيادة في الحريم يوضع في يد المرأة التي سيتربع ابنها على عرش السلطنة. وقد حازت السلطانة «فاليدي» من القوة والعظمة ما أثارت به دولاً وألقت بشعبها في حروب دامية. ولم يكن الحريم عشّاً للحب فقط لفريق من السلاطين، بل كان كحلية خلق المؤامرات والانقلابات والاستغلال الوحشي للأبدان. . فمئات الجواري هناك ممن اشترين بالثمن من الأسواق العامة أو أخذن كغنائم حرب أصبحن. . ولا همّ لهن إلا أن يحكن الدسائس بمهارة ابتغاء ارتقاء سلم الشرف البعيد المنال أو الوصول إلى شبه الحرية. فإذا ذلك وانكشف الأمر كما كان يحدث في كثير من الأحيان، فإن الضحايا وقد يبلغن في بعض الأحيان ثلاثمائة تخاط عليهن أكياس وهن أحياء، ويلقى بهن في مياه البوسفور.

أما الخصيان، وهم أشباه رجال، فإن التاريخ يشير إليهم من طرفٍ خفي. وقد عرف هؤلاء الخصيان كحارسين للنساء منذ عدة قرون في الشرقين الأوسط والبعيد. وقد بلغ عددهم في قصر السلطان في بعض الأحيان ثمانمائة يختلفون في الدرجات من منصب «كسلر آغا» أو رئيس خصيان الجواري إلى النكرات من الغلمان والرسل الذين قد يقومون بأحقر الأعمال في محيط تلك الإدارة الكبيرة المتشعبة.

وكان الخصيان في أول الأمر من البيض. ولما كثر فيهم الفساد والخيانة تغلب عليهم منافسوهم السود، ومنهم من وصل في

القرن السادس عشر إلى تقلد المناصب الرئيسية وصار رئيس الخصيان الأسود من ذلك الوقت الحاكم الحقيقي في الحريم مع الملكة الأم.

وقد ظلت أسرار الحكيم مكتومة خلال قرونٍ من الزمن وكان السلطان في بعض الأحيان يسمح للمختارين من أصدقائه بزيارة قصر سراجيلو ومشاهدة بعض الحفلات البهيجة فيه. أما الحجرات الداخلية في الحرملك وأماكن الخلوة فكانت محرمة عليهم، ولم يكن للرواد حتى السنين الأولى من القرن العشرين عندما كان في خدمة السلطان عبد الحميد الثاني 370 جارية و 127 خصياً وسيلة ما لكي يعرفوا شيئاً عن حياة هؤلاء التعساء المسجونين في داخل «الحريم».

●مصير الجواري التعس●

وعندما خلع عبد الحميد الثاني في سنة 1909 بيد رجال تركيا الفتاة دالت دولة الحريم. وقد سمح للسلطان حينئذٍ بأن يأخذ معه إلى منفاه في سالونيكا القليل من عزيزاته المختارات. أما مصير بقية الجواري فكان مأساة عجيبة، ففي موكب حزين اخترقت بهن 31 عربة شوارع الأستانة، وكانت أعمارهن تتراوح ما بين الخامسة عشرة والخمسين. وقد كتب كثيراً في وصف هذا المصير المحزن، وكان من أحسن ما كتب في هذا الصدد ما كبته «فرانسيس ما كلاج» في كتابه «سقوط عبد الحميد» قال:

«اجتمع هؤلاء التعيسات في قصر التوب كابو في حفل لم ير مثله ذلك المكان. وكان الجواري من حريم السلاطين العثمانيين يؤتى بهن من الشركسيات المشهورات بجمالهن وغلو ثمنهن. ولذلك أبرقت الحكومة التركية إلى مختلف القرى الشركسية في

الأناضول ببلاغ جاء فيه أن أية أسرة لها أحد أعضائها الإناث في حريم السلطان أصبحت في حل من أن تعيدها إليها مهما يكن أمرها حتى ولو كانت قد بيعت بالثمن بواسطة أهلها، أو أخذت منهم قهراً كما كان يحدث في بعض الأحيان».

وعلى أثر ذلك وفد إلى القسطنطينية عدد عظيم من سكان الجبال بملابسهم الجميلة، وساروا جميعاً إلى قصر التوب كابو القديم.

وفي حضرة مندوب تركي دخلوا في بهو مملوء بعشيقات وجواري ونساء السلطان السابق وقد رفعن النقاب عن وجوههن لكي يتعرف عليهن ذووهن.

وتلا ذلك منظر مؤثر، إذ ارتمت فتيات في أحضان آبائهن، وقد حرمن رؤيتهم سنين، وتعانق الأشقاء وأبناء العمومة والخؤولة.

ومن التناقض الذي كان بادياً يومئذٍ أن جاء لأخذ الجواري الرقيقات الحاشية ذوات الملابس الغالية، سكان جبال غلاظ ذوو وجوه خشنة، وكان هؤلاء الأقارب في بعض الأحيان يظهرون التعجب لرؤية بناتهم بوجوههم الجميلة وإيماءاتهم التقليدية وملابسهم الثمينة. وكانت الفتيات فرحات أن عادت إليهن الحرية التي فقدنها منذ سنين.

وبلغ عدد من أعتقن في هذه المناسبة مائتين وثلاثين جارية وهن من غير شك يحلبن الأبقار ويشتغلن بالفلاحة في الأناضول بملابسهن الجميلة بعد الانعتاق. ولكن ما كان أتعس بعض الأقارب الذين لم يجدوا فتياتهم. قتلتهن المؤامرات وأغرقن أحياء في مياه البوسفور، أو أخذهن السلطان معه إلى سلونيكا أو نقلن سراً إلى حريم بعض الأمراء. وكثير منهن وخاصة من كنّ قد جلبن منذ

حداثتهن لم يأت أحد لأخذهن فخاب رجاؤهن. وهؤلاء التعيسات، وهن الآثار الباقية لحريم السلطان، أمضين بقية العمر معاً يملأن قصر التوب كابو في حزن مكبوت. وقد دالت دولة الحريم السلطاني بسنائه ومباهجه الكاذبة. وفي سنة 1924 فتحت بعض حجر قصر سراجيلو للجمهور وطبع عنها دليل صغير. وبعد ذلك بعشر سنين، فتحت حجر أخرى وصدر دليل أوفى. وتمكن للرواد أن يروا أكثر الأجزاء المهمة من قصر سراجيلو بل وأمكنهم أن يدخلوا بعض غرف الحريم مما كانت سراً دفيناً اختص به أناس كانت لأسمائهم هيبة وخشية في ربوع أوروبا.

2ـ «السلطانة الكبيرة»: الواقع والخيال.

صدرت مؤخراً عن دار «البان ميشال» الباريسية الترجمة الفرنسية لرواية «السلطانة الكبيرة» للكاتبة الأميركية باربارا شيز ريبو. تدور أحداث الرواية في مدينة اسطنبول، عاصمة الأمبراطورية العثمانية خلال فترة زمنية محددة تمتد من أواخر القرن الثامن عشر وحتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر. تروي لنا المؤلفة تفاصيل حياة النساء اللواتي كن يعشن في القسم المخصص لحريم السلطان في قصر «توب كابي» الشهير حيث عاش وتوفي أهم السلاطين العثمانيين، وقد تحول إلى متحف يزوره آلاف السواح سنوياً.

تمزج الرواية بين الواقع والخيال، وهي مستوحاة مباشرة من الأحداث التي عرفها الحكم العثماني خلال فترة انحطاطه والتي أدت إلى سقوطه عند مطلع القرن العشرين.

بطلة الرواية تدعى «نقشي ديل» وهي ابنة عائلة فرنسية كانت تعيش في جزر المارتينيك. وخلال سفرها مع مرافقتها السوداء على متن سفينة كبيرة، وقعت أسيرة قراصنة من كورسيكا، ثم وصلت إلى مرفأ مدينة الجزائر، وهناك قرر أحد تجار العبيد أن يهديها إلى السلطان العثماني عبد الحميد.

كانت نقشي ديل في الخامسة عشرة من عمرها عندما وصلت

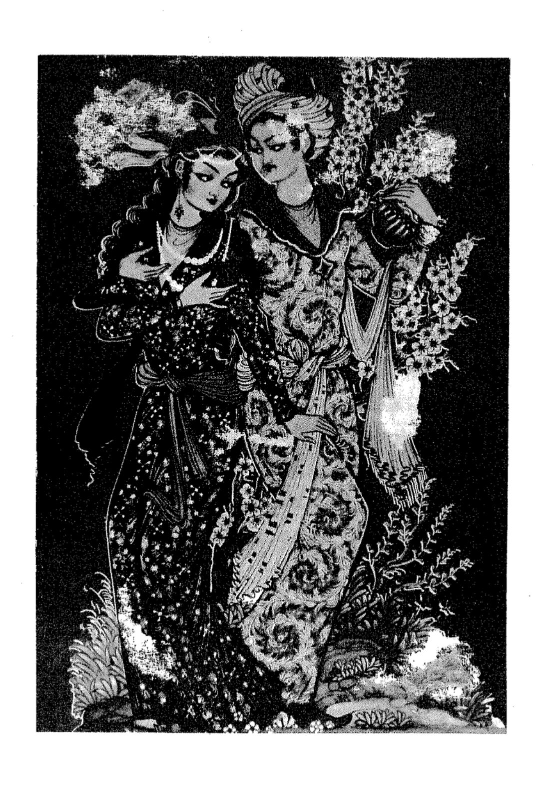
إلى قصر «توب كابي» في اسطنبول. وشيئاً فشيئاً راحت تتعرف على النساء اللواتي يعشن مثلها كجاريات في قسم الحريم. ومن المعروف أن قصر حريم السلطان كان يغتذي سنوياً من نساء يتم استحضارهن من مناطق مختلفة من الأمبراطورية، فكان في حريم توب كابي الروسيات واليونانيات والشركسيات وغيرهن ممن كن يعشن كجاريات في عالم مغلق يحكمه الرجال. وكانت الجارية المحظوظة هي التي تلفت انتباه السلطان، لتصبح عشيقة له، أو يتزوجها، إذا استمرت هذه العلاقة تصبح برتبة «كادين» أي زوجة السلطان. أما «الغاليدي» فهي زوجة السلطان التي يحق لابنها أن يرث والده بعد وفاته. باختصار حتى تصبح الجارية سلطانة عليها أن تمر بمراحل كثيرة وأن تجتاز صعوبات قد تتعرض خلالها إلى القتل من قبل حسادها. ولقد عاشت نقشي ديل بطلة الرواية، هذه الأخطار جميعها. فهي بعد أن أعجب بها السلطان عبد الحميد، عرفت كيف تكسب ثقته فتزوجها وأنجبت منه محمود. وبعد وفاة السلطان عبد الحميد انتقل الحكم إلى سليم الثالث، فأبعدت نقشي ديل عن قصر توب كابي وعاشت أياماً حزينة بعد أن فصلت عن ابنها، غير أن الحظ ابتسم لها من جديد، إذ أن اضطرابات كثيرة عصفت بالأمبراطورية خلال فترة حكم سليم القصيرة، أبرزها انتصار الجيش الروسي على الجيش العثماني ومطالبة البلغار والصرب بالاستقلال. . هذه الأحداث ستؤدي إلى مقتل سليم الثالث عام 1808. وبعد فترة قصيرة يعين محمود سلطاناً، فتعود نقشي ديل إلى قصر توب كابي حيث تتمتع بنفوذ كبير ويكون لها تأثير مباشر على قرارات ابنها السلطان لذي أحدث إصلاحات عديدة في مؤسسات الأمبراطورية المريضة.

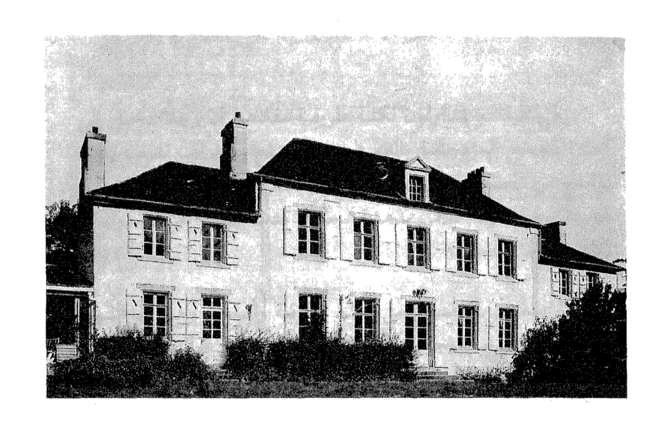
تلك هي أبرز أحداث الرواية «السلطانة الكبيرة» وهي على

الـرغم من التـزامهـا بـأبـرز الأحـداث التـاريخيـة التي مـرت بهـا الأمبـراطوريـة العثمانيـة، وسعيها لنقـل تقاليـد البـلاط والتعبيـر عن الذهنية المسيطرة على عقل السلطان وحـاشيته، يغلب عليهـا طابـع الاستشراق بحيث يشعر القارىء القادم من الشـرق بأن كـاتبتها تكتب عن مجتمـع غريب تعـرفت إليه من خـلال الكتب. ويبدو أيضـاً من خلال هذه الرواية، ومن خلال روايات أخرى مستوحـاة من الشرق، إن الهدف منها هو تحقيق الأرباح التجـارية من خـلال شد القـارىء إلى كل ما هو غرائبي ومدهش.

* * *

وأخيـراً. انهـارت دولـة أسـرار الحـريم وانهـارت سلطة السلاطين.





منظر خارجي لقسم النساء في قصر «توب كابي»

رايسا غورباتشوف
امرأة أذابت جليد السوفيتيات

في موسكو يتداولون نكتة طريفة مفادها أن رجلاً دخل إلى أحد المصانع المزدحمة بالعمال ذات صباح وقد لف نصف وجهه بوشاح من الصوف، واقترب من أحد الشغيلة هامساً: أنا ميخائيل غورباتشوف. فرد العامل بدهشة: حقاً. كدت أن لا أعرفك دون أن تكون زوجتك معك.

والمغزى المقصود من هذه الطرفة واضح. وهو أن السيدة رايسا غورباتشوف زوجة الزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشوف باتت تتمتع بشعبية في الاتحاد السوفيتي تكاد تفوق شعبية زوجها الذي ملأت شهرته الدنيا وشغلت الناس عقب نظرية «الغلاسنوست» (الانفتاح) وكتاب (البيروسترويكا) (إعادة البناء). فالسيدة السوفيتية الأولى تمثل نمطاً جديداً من المرأة السوفيتية لم نعهده في زوجات الزعماء السوفييت السابقين خلال الحقب الماضية.

ومنذ سنوات وسنوات كانت زوجات الرؤساء السوفيات يقضين العمر في الظل، ولا يعرف الناس وجهاً لهن إلا في مناسبة واحدة هي سيرة في جنازة أزواجهن، وراء النعش في الطريق المثوى الأخير. ذلك أن زوجات كل من ستالين خروتشوف وبريجنيف وتشيرنينكو لم يظهرن في المناسبات العامة إلا نادراً.

حتى إن أحداً لم يعرف أن ليوري أندروبوف زوجة إلا عندما ظهرت لتسير في جنازة زوجها عام 1984.

وحدها رايسا غورباتشوف كسرت هذا الطوق وشذت عن القاعدة ولم تنتظر يوم حزن حتى تخرج على الناس، وفوجىء الناس عندما رأوا زوجة رئيسهم أنيقة ورشيقة فلقد اعتادوا أن تكون الزوجات أثقل وزناً من أزواجهن.

وعندما جاءت رايسا إلى الغرب بدت وكأنها قادمة من عالم آخر بعيد، أو أنها حطت على هذه الأرض قادمة من المريخ. وأخذ الغرب يتذكر أن آخر زوجة لرئيس سوفياتي رآها كانت ناتيانا اندروبوف وقد ظهرت حزينة وهي تسير وراء جثمان زوجها لتودعه الوداع الأخير قبل أن يدفن في الساحة الحمراء..

وجاءت رايسا لتمثل وجهاً آخر من وجوه الاتحاد السوفيتي.. ولتكون وجهاً جديداً على المسرح الدولي إلى جانب زوجها. وها هي رايسا ترافق زوجها مثل ظله إلى كل الأماكن وتكسب شهرة تكاد توازي شهرته بشخصيتها الجذابة. فما هي تلك المرأة؟. هل هي تلك المرأة الذكية الخفيفة الظل المنفتحة على الحياة كما وصفها بعض الدبلوماسيين والمراسلين الغربيين الذين قابلوها. أم هي تلك المتشددة صاحبة الحظ الأيديولوجي الصلب كما وصفها آخرون؟.

الحقيقة أن رايسا غورباتشوف تجمع النقيضين في مزيج غريب وملفت. فهي مثل زوجها الزعيم السوفيتي المعروف بأنه ذو «ابتسامة حريرية وأسنان فولاذية».. تجمع بين دماثة ونعومة النساء الباريسيات، وقوة وحزم المرأة السوفيتية. ويروى أنه خلال مأدبة عشاء مع الرئيس ريغان وزوجته نانسي أثناء انعقاد القمة في جنيف 1985، راحت السيدة رايسا تحاضر عن السياسة السوفيتية إلى الحد

الذي دفع بزوجة ريغان للتعليق بعد انصراف غورباتشوف وزوجته للضيوف الآخرين وعلى مسمع من رئيس موظفي البيت الأبيض حينئذ دونالد ريغان. . ماذاتظنهذه السيدة نفسها؟.

-2-

حكاية حب بدأت ونمت وترعرعت بين رايسا وزوجها غورباتشوف. هذه الرئيسة الحلوة ولدت في العام 1932 (وهناك من يقول أنها ولدت في العام (1934)في مدينة روبتوفيسك بسيبيريا، وهي ابنة عامل في السكك الحديدية واستطاعت أن تحصل على نسخة دراسية لتتابع تحصيلها الجامعي في جامعة لومونوسوف في موسكو وتخصص في قسم الفلسفة بالشؤون الماركسية - اللينينية. . . وفي تلك الجامعة التقت بتلميذ الحقوق ميخائيل غورباتشوف وربط الحب بين الشابين وتزوجا في العام 1953. واضطر رفاقهما إلى التخلي لهما عن غرفة النوم التي كانت تضم أكثر من أربعة طلاب إلى أن تمت تشييد بناء خاص للتلاميذ المتزوجين وانتقل إليه ميخائيل ورايسا، وتخرج الإثنان في العام 1955 وذهبا إلى مسقط رأس ميخائيل في ستافروبول في القوقاز. وهناك رزقا بعد عام بابنتهما الأولى والوحيدة ايرينا.

وأخذت رايسا بممارسة التدريس وفي الوقت نفسه تتابع تحصيلها الجامعي لتنال الدكتوراه وكانت اطروحتها التي نالت بموجبها الدكتوراه في العام 1967 تدور حول ظهور مزايا جديدة في الحياة اليومية في أوساط الفلاحين في المزارع التعاونية.

وقضى غورباتشوف ورايسا 23 سنة في ستسافروبول، إلى أن كان العام 1978 عندما استدعي ميخائيل للعمل في وزارة الزراعة، وعملت رايسا أستاذة في كلية الفلسفة في العاصمة السوفيتية حتى

العام 1985 عندما دخل زوجها إلى الكرملين، فاضطرت إلى التخلي عن التدريس. . وأخذت تعد نفسها لتكون السيدة الأولى في الاتحاد السوفيتي.

وخلال الفترة الطويلة التي قضاها الاثنان في القوقاز أخذها ميخائيل غورباتشوف معه في رحلة أو اثنتين إلى الولايات المتحدة وذلك في العام 1984، وقد لفتت إليها الأنظار، وتساءل الذين لقوها عن سر هذه السيدة الأنيقة القادمة من الشرق، والتي تعايش الموضة الجديدة بكثير من الذوق والدقة في الاختيار.

والذين عايشوا رايسا في تلك الفترة ـ أي قبل أن تصبح رئيسة ـ يقولون أنها قررت أن تكون سيدة جميلة وذكية وأنه لا تحجب ذلك أو تنكره. وعندما زارت فرنسا في العام 1985 زارت كبريات دور الأزياء في باريس وتعرفت إلى بيار كاردان وايف سان لوران، وكان من نتيجة ذلك أن أعطي كاردان ترخيصاً لإقامة محل لأزيائه في الاتحاد السوفيتي كما دعي سان لوران إلى تقديم مجموعة أزيائه في احتفالات خاصة في موسكو.

وحرصت رايسا أيضاً على أن تطلع المرأة السوفيتية على خطوط الأزياء الخارجية وتحمست لإصدار طبعة روسية من مجلة بوردا التي صدر عددها الأول في شباط ـ فبراير 1987 إلا أن الطباعة السيئة والألوان الباهتة أجهضت المشروع، بالإضافة إلى ما أخذت تطلقه ألسنة الناس من أقاويل عن المجلة وأزيائها. وعندما زارت رايسا في أيلول 1987 مقاطعة مورمانسك وأخذت تغير ثيابها مرتين في اليوم الواحد أخذ البعض يردد:

«يمكن أن تفعل رايسا ذلك لو أنها كانت في باريس. . ولكن

ليس هنا حيث لا يعرف الناس طعم الزبدة ولا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة في الشهر».

وخلال زيارة رايسا للهند اضطرت جريدة البرافدا إلى أن تمحو من صورة رايسا الخاتم الذي كان يزين أصبعها، إلا أن خصوم غورباتشوف عمدوا إلى تهريب الصور على أشرطة فيديو تعرض كل ما تملكه رايسا من ثياب جديدة. وتردد أن وراء هذه العمليات أصابع ليست غريبة عن جهاز الاستخبارات السوفييتي الذي كان بعض المسؤولين فيه على غير وفاق مع غورباتشوف.

ومما لا شك فيه أن رايسا تلعب دوراً في حياة زوجها وفي توجهاته الفكرية، ففي خطابه الذي ألقاه في المؤتمر السابع والعشرين للحزب في العام 1986 تعرض إلى موضوع ظروف المرأة في الاتحاد السوفييتي وبدا واضحاً أن تلك الأفكار كانت من وحي رايسا.

كما أن رايسا من المعجبات بالشاعر نيكولاي غوميليف الذي أعدم رمياً بالرصاص في العام 1921نظراً لنشاطه المعادي للثورة، وقد سعت حتى سمح مؤخراً بتداول دواوينه.

ورايسا لها طباعها وعاداتها التي لا تتخلى عنها. وأثناء زيارتها إلى واشنطن، أقامت السيدة نانسي ريغان حفلة شاي على شرفها إلا أن رايسا جاءت إلى الحفلة وفاجأت الجميع قائلة بأنها لا تتعاطى الشاي وأنها تحب القهوة. وعندما خرجت رايسا من البيت الأبيض صرحت قائلة:

«هذا منزل رسمي إلا أن الإنسان يفضل أن يعيش في منزل عادي لا في متحف».

وعندما تم تـوقيع اتفـاقية عـدم نشر الأسلحـة الصاروخيـة بين ريغان وغورباتشوف قـالت الصحف أن توقيـع الاتفاقيـة يعتبر حـدثاً تاريخياً. . . إلا أن نجمـة هذه القمـة كانت بـدون أي منازع رايسـا غورباتشوف.

-3-

حـرب باردة بـدأت بين نانسي ريغـان ورايسا غـورباتشـوف. وكانت المواجهـة المثيرة التي تحـدثت عنها عنـاوين الصحف خلال القمة في واشنطن حيث بادرت رايسا نانسي بقولهـا: «لقد افتقـدتك في لقاء ريكيافيك» فردت السيدة الأمريكية بكل برود: «لقد أبلغوني بـأن النساء غيـر مدعـوات إلى تلك القمة». أكثـر من ذلك تـردد أن نانسي بدت منزعجة من كثرة الأسئلة التي أمطرتها بها السيـدة رايسا حول القضايا التاريخية والشؤون الثقافيـة الأميركيـة الأمر الـذي دفع بنانسي إلى الرد بقولها: «أخشى ألا أتمكن يا عزيزتي بإفادتك بهـذا الشأن». ثم تحججت السيدة الأميركية بأنها كانت ما زالت في حالة نفسية سيئة بسبب جـراحة أجـريت لها لاستئصـال ورم سرطـاني في ثديها كما أنها كانت حزينة لوفاة والدتها حينئذ.

هنا يعلق معظم الذين التقوا بالسيدتين نانسي ورايسا بأن مزاج الواحدةمنهمـالم يتناسب مـع مزاج الأخـرى. وعلى أي حال، ثمـة من يقول هنا بين قراء الأبراج والبخت بـأن عدم التفـاهم بين نانسي ورايسا يعود إلى أن كلاً منهما مـولودة تحت بـرج تتناقض خصـائصه مـع برج الأخـرى. فالسيـدة رايسا من مـواليد بـرج الجدي المتسم بالصلابة وقوة الشخصية والصبر والمثـابرة، فيمـا السيدة نـانسي من مواليد برج السرطان الموصوف بخصائص الكآبة وسرعة التأثر وعدم التسـامح. إلا أن كـل هذه التـأويلات لا تمنـع من أن تتميز السيـدة

السوفيتية الأولى بشخصية ظريفة منفتحة توحي بصورة مختلفة تماماً عما عرف عن المرأة السوفيتية التقليدية من عدم الاهتمام بالموضة والأزياء والزينة. فقد سارعت السيدة رايسا في أول زيارة لها للندن 1984 وبعد أن أبدت اعجابها بزوج الأقراط المصنوع من الألماس الذي كان يزين أذني السيدة مارغريت تاتشر، إلى محل مجوهرات في بوند ستريت لشراء زوج من الأقراط بـ 1780 دولار. وفي باريس تلقت زجاجة عطر صغيرة باهظة الثمن من ايف سانت لوران كهدية بعد أن سألت عن الثمن بغية شرائها.

أما في لندن فقد ألغت رايسا زيارة لضريح كارل ماركس من أجل مشاهدة جواهر التاج الملكي. وبالمناسبة فإن معاطف الفرو تستهوي السيدة رايسا إلى حد أنها تمتلك أربعة منها. وقد بدلت ثلاثة معاطف خلال يوم واحد أثناء وجودها في واشنطن وتردد أن الزعيم السوفييتي علق مازحاً على ذلك بقوله: «إن قمة موسكو الأخيرة مثلما كانت قمة واشنطن التي سبقتها متألقة بأناقتها وبثقتها بنفسها إلى حد أن عدسات الإعلام الأميركي استفاضت في درس وتحليل شخصيتها.»

-4-

قالوا عنها أنها من طراز جديد ومتطور من المرأة السوفيتية. لها شخصيتها القوية المستقلة. وهي ليست بمثابة زوجة فحسب بل مستشارته الخاصة وصديقته التي يأتمنها على أسراره وأسرار الدولة. ففي حديث تلفزيوني لغورباتشوف سجلته له محطة «إن. بي سي» الأميركية سأله المذيع عن دور السيدة «رايسا» في حياته فأجاب الزعيم السوفيتي باسماً: «إننا نناقش ونتطرق إلى كل الموضوعات سوياً». وعندما استفسر المذيع عما إذا كان ذلك يشمل أمور الدولة، اتسعت ابتسامة غورباتشوف وقال: «أظن أنني أجبت عن

هذا السؤال حين ذكرت إننا نناقش كل الموضوعات».

-5-

تحاول تغيير الصورة الجامدة التي ظلت عليها المرأة السوفيتية في نظر الغرب والعالم، منذ عهد ستالين الذي قيل أنه أرسل بعض زوجات المسؤولين السوفييت إلى معسكرات الاعتقال، وأوعز لمسؤولين آخرين بتطليق زوجاتهم تحت طائلة التهديد بالعقوبات.

لذلك فإن رايسا هي بمثابة صورة أخرى للمرأة السوفيتية. تدلي بالأحاديث الصحفية وتستجيب لكل اللقاءات والنشاطات الاجتماعية التي وصلت إلى حد مناقشة إمكانية وضع برامج صحية لمراقبة زيادة أوزان المواطنين السوفييت في كل أنحاء البلاد عبر إنشاء نوادي رياضية وعلاج طبيعي ونفسي لمكافحة البدانة.

-6-

رايسا غورباتشوف امرأة من طراز آخر تتكامل فيه الأيديولوجيا بالأناقة والرشاقة إذ أنها ترغب في تغيير صورة المرأة السوفيتية وتريد لها أن تستخدم أحمر الشفاه الباريسي مع الاحتفاظ بكل المقومات الفكرية والثقافية والفلسفية كي لا تقول الكاتبة الفرنسية «ريمون آرون» بسخرية لاذعة»: «المرأة الروسية تحب من أجل عشاء يليق بدجاجة».

لكن رايسا كما زوجها غورباتشوف، تواجه معارضة الفئات التقليدية والمحافظة والمتشنجة أيديولوجيا في الاتحاد السوفيتي. فالماركسيون «الأرثوذكس» الأصوليون، يصفون غورباتشوف بأنه القيصر الذي يرتدي جلد الأوزة ويرون بأنه يعرض الاتحاد السوفيتي للبيع في السوق الرأسمالية. تماماً كما فعل الزعيم الصيني «وينغ

هستيـاو بينغ» بتـركة مـاوتسي تونـغ في الصين قبل أن يكتشف بـأن الأميـركيين يقبلون الصينيين فقط كـ «جـراثيم صفـراء» تقـرض في الخاصرة السوفيتية.

-7-

نقـل عن السيدة رايسـا رأيها في التغييـر الحـاصـل في عهـد زوجها بأنه لو لم يحـدث ذلك لكـانت الدولـة السوفيتيـة انتهت قبل عـام 2000 وهي لا تعني بذلـك ما قصـده خروتشـوف حين قـال في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السـوفيتي من أن الدولـة ستنتهي في ضوء النبوءة الماركسية والتغييـر البنيوي في مختلف القـطاعات. هكذا قال خروتشوف عن العام 1984.

-8-

إنها الدولة الأخرى داخل الدولة. وبطبيعـة الحال فـإن رعايـا هذه الدولة الأخرى يعتقدون أن اتساع العملية الديمقـراطية والتغييـر لا بد أن يكسر تلك القشرة الأيديـولوجيـة التي يختفون وراءهـا وإن نساء الكافيار وكريستيان ديو وايف سان لوران قادمات هذه المرة.



رايسا غورباتشوف. . ماذا اشترت من السوق اللندني بـ ١٧٨٠ دولاراً؟



بنت غروباتشوف ورايسا
واسمها «ايريانا» مع زوجها



ميخائيل ورايسا وغورباتشوف وعرق أخضر في مستقبل الاتحاد السوفييتي

أنديرا غاندي

من الطفولة المعذبة إلى قيادة 660 مليون نسمة

■■كانت صبورة، جلودة، لها عزيمة لا يمتلكها الرجال وكانت منذ نعومة أظفارها على احتكاك دائم برجال السياسة. ترعرعت في ظل غاندي ونهرو. . ولم تعرف غاندي إلا كشخص من العائلة تلجأ إليه في حل مشاكلها التي كان يحلها بطريقة رصينة حكيمة. مثقفة من الدرجة الأولى، تتكلم الإنكليزية والفرنسية بطلاقة بالإضافة إلى إجادتها التامة لمعظم اللغات الهندية والبالغ عددها أربعون لغة. خلال حملتها الانتخابية كانت تلقي عشرين خطاباً سياسياً في اليوم وتقطع مسافة ستين ألف ميل متنقلة مرة بالطائرة، أو بالسيارة أو حتى سيراً على الأقدام. . وفي كثير من الأحيان كانت لا تنام أكثر من ساعة يومياً. فمن هي هذه المرأة التي شغلت العالم؟ كيف استطاعت أن تشغل منصب قيادة الهند؟. وكيف استطاعت أن تمسك بزمام دولة واسعة شاسعة تعداد سكانها يبلغ 660 مليون نسمة؟؟!■■

●ولدت انديرا غاندي عام 1917، في مدينة الله أباد. وفي فمها ملعقة من ذهب.

فهي ابنة عائلة ارستقراطية غنية. إلا أن هذه العائلة أنفقت كل ما عندها في سبيل الاستقلال، عاشت طفولة معذبة، ومحفوفة بالحرمان، وطفولتها كانت من نوع آخر، ليست كالتي يعيشها كل

الأطفال. فقد كانت تحب اللعب بمفردها، وكانت تملك الكثير من الدمى، ولكنها دمى من نوع آخر، فهي دمى سياسية إما رجل يحمل مشعل الحرية، أو شخص يحاول تحطيم قضبان السجن، أو أم تهيب بأبنائها ليخوضوا المعركة ضد أعداء الوطن. وهوايتها المفضلة كانت الوقوف فوق مائدة عالية، وإلقاء الخطب، أمام الحذم حيث كانوا يستقبلونها بعاصفة من التصفيق.

وإذا لم يتيسر لها مجموعة من المستمعين الحذم كانت تجمع الكراسي وتلقي عليهم الخطب، كما أنها كانت تنظم الدمى بشكل مجموعة تعلمها كيف تسير في مظاهرة لتأييد المهاتما غاندي.

●كتبت مرة في مذكراتها تقول:

«بعد الاستقلال أمر المهاتما غاندي، بإحراق كل الثياب والأزياء الأجنبية، وارتداء زي الهند الوطني، كنت يومها صغيرة أرادوا مني أن ألجأ إلى النوم، كي يذهبوا لإحراق الكوم المكومة، من الثياب الحريرية والمخملية الباهظة الثمن، يومها ألحيت بالذهاب معهم إلا أنهم مانعوا فلجأت إلى جدي الذي وقف في صفي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تنتصر إرادتي على إرادتهم. وبعد مشاهدة ألسنة النيران تلتهم جبل الثياب المكومة، أتيت يومها ونمت نوماً عميقاً، فقد شعرت بأنني أديت واجباً وطنياً كبيراً.

بعد فترة من ذلك أتت إحدى قريبات أمي من باريس، وجلبت لي معها ثوباً فرنسياً رائعاً. أغرتني لارتدائه، ولكنني لم أفعل. قلت لها أنني لا أقتني الأشياء الأجنبية، قالت كيف وكل الدمى التي تلعبين بها أجنبية الصنع.. عندها بدأ في داخلي صراع بين الإخلاص للوطن، وبين إحراق الدمى الجميلة، التي كنت

أعتبرها جزءاً مني. وانتصر الواجب وأحرقت الدمى، إلا أن نتيجة ذلك كان مرض شديد صحبه حرارة مرتفعة أقعدني في الفراش لعدة أيام».

هكذا كانت انديرا في طفولتها، بل أكثر فهي في سن الثالثة عشرة من عمرها. أسست منظمة سرية للأطفال، وجمعت حولها 6000 عضو مهمتهم العمل من أجل الوطن. لقد كانت تشترك في المظاهرات وتنقل الطعام والرسائل للمناضلين وكثيراً ما زارت السجن، إما للمحاكمة على ما كانت تقوم به، وإما لقضاء أغلى عشرين دقيقة، كما كانت تدعوها، مع والدها. عندما أتمت تعليمها الثانوي ذهبت لتتلقى علومها في سويسرا واكسفورد. وفي عام 1948 عندما بلغت الخامسة والعشرين من عمرها غزا الحب قلبها. ووقعت المرأة ذات الإرادة الفولاذية فريسة الحب حيث أحبت زميلها في الجامعة فيروز غاندي، الذي كان من طبقة يعدونها من أسفل السلم الاجتماعي في الهند فعارض والدها عندئذ زواجها. إلا أن إرادتها انتصرت فتزوجته ورزقت منه ولدين: راجيف (رئيس وزراء الهند الحالي، وسنجابي)... عام 1947 أصبح نهرو رئيساً للحكومة المؤقتة بعد الاستقلال وكان قد خرج من المعتقل فحل ضيفاً على ابنته وزوجها. عام 1960 مات فيروز غاندي وحزنت عليه أنديرا كثيراً. عام 1966 ترأست الوزارة وحكمت حتى عام 1977 ثم أبعدت وعادت لتحكم من جديد. إلى أن أغتيلت على أيدي مجموعة من المتطرفين السيخ وخلفها ابنها راجيف.

عندما وقفت أنديرا غاندي عام 1966 على شرفة منزلها تستقبل الهتافات وعبارات التهنئة، كان بين الجماهير رجل هندوسي عجوز يهز برأسه ويقول: «مسكينة هذه المرأة لقد حكمت على

نفسها بالأشغال الشاقة بتوليها هذا المنصب الذي تنوء تحته كواهل الرجال».

ولا شك بأن هذا الرجل كان يعرف الكثير عن مشاكل الهند المعقدة مما جعله يشفق على تلك السيدة المتواضعة ذات العينين الواسعتين الحزينتين. كان مشكلة الانتاج الغذائي التي كانت تهدد بالجوع عشرات الملايين من أبناء الشعب.. وكان يعرف أن مشكلة الحدود بين الهند وباكستان هي الجرح الذي تعاني منه الهند.. وكان يعرف بأن الهند مليئة بالتناقضات: صراعات بين المذاهب.. صراعات ضمن الحزب الواحد. تعدد لغات... تعدد مذاهب.. فقر.. بطالة.. مجاعة. لكل هذا جعل الرجل يرى بأن هذه المرأة مسكينة لأن رسالتها هي من أصعب الرسالات. ولكنها نجحت واستطاعت أن تقود 660 مليون نسمة بـ660 مليون مشكلة. تلك هي انديرا غاندي خارج المألوف في القرن العشرين.







تلقي إحدى الخطب أمام الجماهير المحتشدة.



كوكب الشرق أم كلثوم
حياتها السرية ـ أوراقها الخاصة

«عرف الناس أم كلثوم.. وأنا عرفت أم كلثوم الأخرى.. عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانة.. عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة.. عرفوها فوق المسرح والأضواء مسلطة عليها وصوتها يملأ الدنيا متعة وهناء وعرفتها في غرفتها الصغيرة في الطابق العلوي من بيتها منزوية فوق كنبة صغيرة.. تبكي».

هكذا يلخص الكاتب الصحفي المعروف مصطفى أمين علاقته الوثيقة بأم كلثوم. فمن هي أم كلثوم الأخرى التي يكشف عن بعض زواياها مصطفى أمين؟. كان يقال عن أم كلثوم أنها بخيلة أو شحيحة بينما كانت في الخفاء تدفع مرتبات شهرية لعشرات الأسر وتعتبر هذا سراً من الأسرار التي لا يجوز إفشاؤها لأقرب المقربين لها.. وكم من مهندسين وأطباء، وقضاة ساعدتهم حتى وصلوا إلى مناصب مرموقة.

وحدث مرة أن جاء إلى مصطفى أمين أحد أفراد فرقتها وقال له أنني أعرف مقدار صداقتك «للست» فهل يرضيك أن أذهب إليها لتسلفني خمسة جنيهات فترفض رغم أنني أعمل معها منذ 51 سنة؟.

واستنكر مصطفى أمين ما فعلته أم كلثوم وانتظر خروج الموسيقي ليدير رقم بيتها وكان وقتها «808080» وسألها هل صحيح أنك رفضتي إقراض «فلان» خمسة جنيهات وأنت تعلمين أن بيته

ليس به قرش واحد؟. أجابت أم كلثوم: نعم رفضت.. ولما عاتبها مصطفى أمين وسألها عن السبب ردت ضاحكة «لأنني امرأة بخيلة».. لكنه قال لها أنا أعرف عنك عكس ذلك.

ردت: أنت لا تعرفني ثم ضحكت وهي تشترط عليه أن تروي الحقيقة على ألّا يخبر بها أحد.. قالت له: إن من مصلحتي أن يبتعد عني النصابون والأفاقون حين يردد الناس أنني بخيلة.. أما هذا الموسيقي فقد علمت أنه كان ساهراً بالأمس في بيت فريد الأطرش وخسر على مائدة القمار ثلاثمائة جنيهاً فرفضت أن أعطيه الجنيهات الخمسة لأؤدبه لكني أرسلت مع السائق خمسين جنيهاً لزوجته واتصلت بها لكي لا تخبر زوجها فتتركه يدوخ ويتعذب ليعرف مرارة القمار.

*أسرار من داخل بيت تومة

تومة.. الست.. كوكب الشرق.. سيدة الغناء العربي.. كلها ألقاب دلل بها الجمهور أم كلثوم. وأم كلثوم كما قال العقاد هي قطعة الحرير التي تعلو نسيج العلم أو الراية.. و (تومة) كانت وما زالت تعلو رآية الفن العربي.. فلم تكن مجرد مغنية.. لكنها كانت أقرب إلى الظاهرة أو الأسطورة التي نجحت في صياغة وتوحيد الوجدان العربي من المحيط إلى الخليج.. منحت الحب شرعية وقيمة وجعلته يتجاوز حد الدائرة الفردية ليصبح محوراً لعالم أكبر وأوسع يحوي الأرض والوطن.

من قرية مصرية خرجت هذه الصبية الفلاحة وبرحلة عصامية فريدة شقت الطريق لتصبح شخصية قوية تاريخية تربط بين الشعب العربي حتى في أحلك فترات الانقسام.. كانت صوتاً مثقفاً واعياً أو كما قال أحد المستشرقين أنها «الصوت المحيطي» صوت المحيط

العربي كله. «أو كما قالت الصحفية الجزائرية «ايزابيل صياح» التي جمعت تاريخ «أم كلثوم» منذ أن ولدت إلى أن ماتت في كتاب يحمل اسمها «أم كلثوم كوكب الشرق»، تقول إيزابيل صياح: أنها تشبه ماريا كالاس في صوتها، وأديت بياف (أم كلثوم الفرنسية) في وضعها الاجتماعي « «مارلين مونرو» الأسطورة، وجان دارك في إيمانها.

مرحة.. متقدة.. ناقدة.. قارئة.. ذات كبرياء.. وطنية.. متواصلة مع أناسها فصارت جزء منهم ومن تاريخهم.. منحتنا الفرح في حياتها في ليلة الخميس الأول من كل شهر على مدى أكثر من نصف قرن.. وحين رحلت افتقدناها فشح الفرح وصار استدعاءها.. استدعاء أغنياتها هو استدعاء لزمن الفرح الجميل الذي كان يوماً.. وإن كانت تومة لم تعد ماضياً فهي زمن للفن الجميل المقاوم حتى لزمن الأفول.

من بيت متواضع بقرية طماي الزهايرة خرجت أم كلثوم لأب يؤذن بصوت جميل في مسجد القرية ويقرأ التواشيح هو الشيخ إبراهيم التلياجي وأم بسيطة هي فاطمة.. الصدفة كشفت للأب عن جمال صوت أم كلثوم فقرر اصطحابها مع أخيها خالد إلى الموالد التي يرتزقون منها بشرط إخفائها في عقال وجلباب صبي. كبرت الصغيرة بسرعة متجاوزة طفولة لم تعشها ورافقت الأب والأخ إلى الحفلات والموالد بإزاء (طبق المهلبية) بعد أن تؤدي المطلوب منها. جابت القرى ومدن الأقاليم الصغيرة وذاع صيتها وانحصرت كل أحلامها وقتها في (طبق المهلبية) وزجاجة المياه الغازية وحمار تركبه بدلاً من المشي بين (الكفور) أما (المسيط) فكان يتجاوز ما تحلم به.

غنت لناظر القطار ليسمح لها بالجلوس في حجرة الانتظار اتقاء لأمطار الشتاء.. بشرت بالمجد صبية وصنعته ثم عاشته. عاشت الحرمان والسهر والصبر والدموع قبل أن تتربع على عرش القلوب والمشاعر والفن. وفي أول حفلة لها بالقاهرة وصفوها بـ «العيلة» ورفضوا أن يسمعوها.. وقرب انتهاء الليلة سمحوا لها بالتجربة فانحسر الساهرون. أول ببغاء رأته كان في هذه الليلة وما أن سمعته يتكلم حتى صرخت: إلحقوه غراب بيتكلم.

هذه هي بداية تومة أسطورة الغناء العربي التي قدمت ما يقرب من (700) أغنية ومع ذلك لم ترض يوماً عن أدائها.. فكلما تجيب على سؤال حول حقيقة شعورها وهي تسمع أغنية لها:

«إنه شعور بالضيق فأنا لم أعتقد يوماً أنني نجحت مائة بالمائة.. وفي كل مرة أتصور أنه كان بإمكاني أن أؤدي أفضل».

قالوا أن صوتها يحتاج لميكرفون خاص لأنه أقوى من الأصوات العادية. تقول:

«عندما أغني على المسرح أنسى الدنيا كلها وأدرك بإحساس مدى انسجام الناس معي».

* * *

لم تكن تومة (أم كلثوم) تعيش وحدها قبل أن تتزوج بل كانت تعيش مع قبيلة. في الطابق الأرضي، كانت تقيم أمها فاطمة إلى أن توفيت، وأختها «سيدة» حتى انتقلت إلى شقة مستقلة، وأخوها خالد حتى كبر أولاده واستأجر لهم شقة في الزمالك. وكان يقيم مع أم كلثوم في الطابق العلوي ابنة أختها سعدية وزوجها وجدان ماهر الذي كان يعمل كوكيل للبناء ثم مستشار.

وكانت متعة أم كلثوم في أطفال ابنة أختها سعدية كبيـرة. لقد أنجبت سعدية أولاً أحمد فاحتضنته أم كلثوم وغمرته بحبها وأحاطتـه برعايتهـا كانت إذا مـا استيقظت من نـومها طلبتـه وإذا أعادت لبيتهـا استدعته لكن بعد سنوات بدأت أم كلثوم تزهد في الصغيـر ولا تهتم به ولما سـألها مصـطفى أمين عن السر قـالت: «أصبحت له إرادة». «وكـان الموقف يتكرر كلما رزقت سعدية بطفل جـديد.. تجن بـه أم كلثوم حتى يصير له إرادة فتتركه.

مارست أمومتهـا أيضاً مـع أبناء شقيقهـا وهم دسوقي ومحمـد وسعـدية وسكينـة وممدوح ورفعت.. (كـانوا أولادهـا هي) أو هكذا كانت تحسن حتى إذا ما تزوج الواحد منهم ورزق بطفل كانت تعتبر أن لها حفيد.

●مجهولون في حياة تومة●

الشخصيـة المجهولـة في حياة تـومة هي سنيـة إسمـاعيـل.. وسنيـة إسماعيـل هـذه هي طفلة من نفس قـريـة أم كلثـوم (طمـاي الزهايرة) أبوها ابن عم أبو تومة. جاءت سنية الفـلاحة الصغيـرة إلى القاهرة وعمرها سبع سنوات، وما كادت تـراها حتى طلبت منهـا ألا تعـود إلى قريتهـا أبداً. أصبحت سنيـة أمينة أم كلثـوم وسكرتيـرتهـا وكـاتمة أسـرارها معهـا كل المفـاتيح الخـاصة بهـا.. ترد على كـل التليفونات وبذكائها الفطري تسللت إلى قلب وحيـاة تومـة. فصارت تفهمها حتى قبل أن تتكلم ويروى أن أم كلثوم عندما تعرضت لمحنة صحية تصورت أنها ستموت خلالها واستدعت مصطفى أمين لتطلب إليـه أن تملي وصية تـرث من خلالهـا سنية ثلث ثـروتها. ونجت أم كلثوم ولـم تكتب الوصيـة لكن حدث أن وقعت سنيـة هذه في غـرام موظف صغير كان يتردد على زوج سعـدية ابنـة خالتهـا.. وثارت أم

كلثوم لأنها تريد زوجاً يليق بوصيفتها لا مجرد موظف صغير، لكن سنية أصرت وفشلت كل وساطات أم كلثوم ومحاولاتها لإغراء سنية وإبعادها عن هذا الموظف خاصة وأن أم كلثوم كانت تعتبرها ابنة لا مجرد وصيفة.

وتزوجت سنية من عبد الحميد الذي استقال ليعمل سائقاً لسيارة أم كلثوم الخاصة، وخضعت تومة لإرادة سنية التي أحبتها بل كانت تشعر أنها مدينة لها بحياتها. فقد حدث في يوم أن أم كلثوم كانت في حالة نفسية سيئة وقالت لسنية أريد أن أتمشى قليلاً على شاطىء النيل وقد خرجت من فيلتها وأحست سنية بما تنويه فجرت خلفها لتمسك بها قبل أن تلقي بنفسها في النيل.

يروي مصطفى أمين أن تومة قالت له، كيف حدث هذا:

«إنني مؤمنة بالله لكن صباح هذا اليوم رأيت الدنيا كلها تسور في وجهي وأفقت على يد غليظة تشدني وسنية تحتضنني».

وبعد زواج أم كلثوم من الدكتور الحفناوي سنة **1954** غادر الفيلا كل من كانوا يعيشون مع تومة باستثناء سنية وزوجها السائق عبد الحميد حتى بدأ التصادم بين د. الحفناوي والسائق. فقد كان الحفناوي لا يرى فيه سوى مجرد سائق لأم كلثوم بينما كان عبد الحميد يعتبر نفسه في مكانة زوج ابنة أم كلثوم. ولما أصر الدكتور الحفناوي على طرده من العمل تمسكت زوجته سنية به وقالت إذا خرج زوجي سأتبعه. وفعلاً خرجت معه بلا مكافأة بعد ثلاثين عاماً من العمل «كاتمة لسر» أم كلثوم.

●راهبة في محراب الفن●

تقول الدكتـورة نعمات أحمـد فؤاد حول سـر لماذا تـرهبت أم كلثوم:

«إن السـر ربما يكمن في نشـأتهـا. فعنـدمـا اكتشف والـدهـا صوتها، وعزم على الاستعانة بها تحايل على التقـاليد بـإلباسهـا زي غلام فنشأت أم كلثـوم نشأة صبي. وكـانت تحضر مجـالس الرجـال كواحد منهم تبادلهم الأحاديث.. ربما تكون هذه الظروف قد أنامت فيهـا مطالب الأنـوثة وأيقـظت روح طموح الإنسـان ودفعت أم كلثوم زمناً طويـلاً ثمناً للمجـد» زمناً من وحـدة القلب التي تستشعرهـا د. نعمات في أبيات تغنيها تومة:

صحيت أعيش بقلوب النـاس وكـل عـاشـق قـلبـي مـعـاه
شربوا الهـوى فاتـوا لي الكاس ـ من غيـر نـديم أشـرب وإيـاه

لقد طاردتها إشاعات الخطبـة والزواج، حتى أنهـا زوجتها في فتـرة الثلاثينـات وحدهـا من خمس: عمـرو إبـراهيم، الشيـخ عبـد الـرحيم بدوي (صـاحب مطبعـة) ـ والفنان محمـود مختار (المثـال) وأحد كبار رجـال الدولـة المشتغلين بالقـانون والشـاعر أحمـد رامي الـذي كان أهله أنفسهم يتصـورون أنه تـزوجها سـراً ولم يقلعوا عن هذه الفكرة إلا بعد أن تزوج رامي فعلاً. واستمرت هـذه الإشاعـات حتى تـزوجت تومـة من طبيبها الخـاص د. محمد حسن الحفناوي بعـد عودتهـا من رحلتها العـلاجية في أميـركا ونصحهـا الأطباء بـأن تتزوج. فقد كانت تصف هذا الـطبيب كما جـاء في كتاب «ابـزابيل صياح» بالذكاء وسـرعة البـديهة وتشعـر معه بـالراحـة.. وكانت مـع التقارير الطبية التي تحملها تقرأ لـه القصائـد والأغاني التي ستغنيهـا في حفلاتها.

وكـانت أول صديقـة أسرت لهـا تومـة نبأ الـزواج هي سميـرة أباظة. وتزوجت تومة من طبيبها الخاص بلا احتفالات.

●أم كلثوم وعبد الناصر●

من نفس كتاب «ايزابيل صياح» نتعـرف على موقف أم كلثـوم من ثورة يوليـو. . كانت في الاسكنـدرية حين سمعت من الـراديو أول بيـان للثورة. . تـركت الراديـو وأمسكت بـالمصحف كعـادتهـا تقـرأ القـرآن. . وغلبها الانفعـال فراحت تتصـل بالأصـدقـاء. ثم قـررت العودة إلى القاهرة وما إن وصلت حتى اتصلت بـأحمد رامي الـذي قال لها:

كنتِ على بالي وأنا أكتب:

مـصـــر التـي في خــاطــري وفـي فمـي
أحـــبـــهـــا مــن كـــل روحـــي ودمـــي

أشعر أن هذا إحساسك فأنت مصرية أصيلة.

عايشت تومة الثورة بكل تفاصيلهـا ثم أخبرت رامي بقـرارها: أن تقيم حفـلاً للضبـاط الأحـرار. وتـردد رامي في أن يخبـرهـا بـأن الإذاعة توقفت عن إذاعة أغانيها لأنها غنت للملك. لكنه صرح لهـا لتنفعل أم كلثوم:

كيف يحاسبونها على موقفها في الغناء من الملك ومـاذا كانت تملك.

ووصل الخبر إلى عبد الناصر الذي اتصل بمدير الإذاعة وراح يناقشه:

هل نوقف الشمس أيضاً لأنها أشرقت في عهد الملك؟!.

ثم أسرع ليتصل بأم كلثوم ليقول لها بأن مدير الإذاعة في انتظار أوامرك فأرجوك لا تغضبي. ومنذ تلك الفترة ارتبط مصير تومة بكل التطورات الوطنية وبرحلة ثورة يوليو.. غنت لكل الأحداث الوطنية لكن ذروة مشاركتها جاءت بعد هزيمة 1967 حيث بدأت سلسلة من الرحلات تغني فيها وتجمع المال والذهب لصالح المجهود الحربي.

●أم كلثوم وحفلة اللقاء مع عبد الوهاب●

في حفل عيد المعلم حيث سيقوم جمال عبد الناصر بتوزيع الجوائز على النابغين في العلوم والفن والآداب حضرت أم كلثوم مرتدية «تايير» غامق اللون ومحتشماً كعادتها وبعد السلام الجمهوري استدعاها عبد الناصر ليقول لها:

«لقد أنشدتِ الأغاني التي كنا جميعاً في انتظارها.. وباسم الجمهورية العربية المتحدة أهدي إليك وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى».

لم تجد ما تجيب به على هذا التقدير فقبّلها عبد الناصر ونادى على محمد عبد الوهاب وقال له:

«أنت أيضاً أقدم لك وسام الاستحقاق وأقدر فنكما ولكن لن أسامحكما لعدم تعاونكما معاً في عمل فني تقدماه لنا».

رد عبد الوهاب فقال:

«لك مني جزيل الشكر على هذا الشرف العظيم. لن أتكلم عن وسامي ولكني أعي معك ومع الجميع عبقرية أم كلثوم التي نلتف جميعاً حولها. وأنا كملحن يشرفني أن تتغنى السيدة أم كلثوم بألحاني».

وتقدم عبد الوهاب إلى أم كلثوم وقبّل يديها مما أثار موجة من التصفيق الحاد بين الجالسين. ووردت أم كلثوم عليه دون خجل وبصوت مسموع: «أنا لا أعارض». وتضاعف التصفيق من جديد.. وهنا اطمأنت من ردود الفعل وتأكد الجميع أنها ستغني من تلحين عبد الوهاب ولكنها ليست متعجلة. وظلت عاماً كاملاً تتردد في إتمام هذا اللقاء. وفي النهاية علم عبد الوهاب برغبتها من صديق مشترك لهما فاتصل بها عبد الوهاب وقال لها:

«إن تعاوننا لن يضيف جديداً لفنك أو لفني ولكننا نتقدم في السن ولكن هذه المبادرة مرجوة من زمن. تعرفين أحمد شفيق كامل لقد قام بكتابة أغنية جميلة جداً ومن المؤكد أنها سترضيك».

أثناء حفلتها في باريس بعد النكسة أرسلت إلى الجنرال ديغول:

«قبل أن أغادر فرنسا أحيي فيك وقوفك مع العدالة والسلام».

ورد عليها الجنرال ديغول:

«لقد لمست بصوتك أحاسيس قلبي وقلوب الفرنسيين جميعاً».

ثم طافت بمختلف البلاد العربية وبمختلف محافظات مصر.

●في السودان صلى الناس في المسرح أثناء غنائها شكراً لله.
●في الكويت رشوا عليها العطر.
●في لبنان منحوها وسام الاستحقاق.
●في المغرب قدموا لها شمعة خضراء مرصعة بالذهب.
●في تونس أحاطوها ببستان من زهرات القرنفل بلغ عدد ورداته 280 ألف زهرة ومنحوها وسام الجمهورية.

●وفي باريس أقاموا لها صورة بالحجم الطبيعي بالنور.

●أشهر السمّيعة في جمهور أم كلثوم●

عرضت مجلة «الكواكب» المصرية الصادرة في 19 مايو 1955 لنماذج من جمهور أم كلثوم في الخمسينات وهي نماذج تستحق التسجيل لدخولها كجزء من تاريخ أم كلثوم ومن هؤلاء السميعة نماذج تستحق التوقف:

1ـ الحاج حافظ الطحان صاحب مضارب الأرز وهو يستمع لأم كلثوم منذ ظهورها ويحمل لقب «السميع الأول».

2ـ محمد الزقازيقي تاجر بالسويس اعتاد حجز مكانه بالتلغراف.

3ـ أحمد الجمل وتسميه أم كلثوم عامل الإنقاذ فهو مصاحب لها في كل حفلاتها أينما كانت مستعد لتلبية أي طلب لها ولفرقتها.

4ـ عائلة زين العابدين بحلوان وقد اعتادت إحدى سيداتها أن تبخر تومة في حجرتها بعد كل وصلة غنائية.

إلى جانب هؤلاء هناك الوجوه المألوفة التي اعتادت أن تحتل مقاعد الصفوف الأولى وأبرزهم: أحمد رامي ـ فؤاد الأطرش شقيق فريد الأطرش ـ د. عمر شوقي الذي يتبع تقليداً ثابتاً يوم حفل أم كلثوم الشهري فينام مبكراً في الليلة التي تسبق الحفل ولا يتناول في هذا اليوم إلا وجبة خفيفة ولا يتناول العشاء لأنه كطبيب يدرك أن هذه أفضل حالة تمكنه من «السلطنة» في الاستماع.

ومن الطريف أن نشير إلى أن أم كلثوم قامت بنوع من

التصنيف لمستمعي حفلاتها فهي تجد متعة في مراقبة الجمهور. هناك مثلاً:

«شخصية «الروميو» وهو شخص رقيق جداً ما إن تبدأ الأغنية حتى يغرق في التنهدات ولا يفيق إلا على تصفيق المستمعين».

المستمع العصبي وهو النوع ـ كما تقول تومة ـ كثيراً ما كان يضحكها فهو عادة هادىء جداً قبل الغناء ثم تصيبه حالة الطرب فيبدأ في الصياح:

«اعد. . . اعد يا ست. .

ولا يكتفي بذلك بل

«يتنطط» على مقعده من فرط النشوة. .

وتقول أم كلثوم:

«أذكر أنني لاحظت في إحدى الحفلات أن هذا المتفرج حضر بلا طربوش فقلت لنفسي الحمد لله فلن تطير الليلة طرابيش في الهواء. . لكن ما إن انهيت أحد مقاطع الأغنية حتى رأيت صاحبنا يخطف طربوش جاره ويقذفه في الهواء. . »

أما المستمع الثالث فهو «البطانة» ويكتفي بالاستماع بل يقول بترديد الأغنية مع تومة وقد تقلصت كل عضلات وجهه وبرزت عروق رقبته وهو يحاول أن يسير خطوة خطوة مع أم كلثوم شخصياً معها. . أطلقت عليه اسم المهرج. . فهو راغب دائماً في إثارة انتباه الآخرين لذلك يلجأ لأغرب الطرق في التعبير عن إعجابه.

●أول وسام لأم كلثوم وأعز لقاء مع أم المصريين●

أول وسام نالته أم كلثوم كان من ملك مصر السابق فاروق.

فقد كانت تغني في حفلة بالنادي الأهلي وفوجىء الحاضرون أثناء الغناء بالملك فاروق يدخل الحفلة ويجلس على مائدة رئيس النادي وقتها أحمد حسين باشا . . كانت أم كلثوم تغني «هلت ليالي القمر» .

ولما انتهت الأغنية نادى الملك مصطفى أمين وطلب إليه أن يعلن من على المسرح أن الملك أنعم على أم كلثوم بوسام الكمال . . وكان هذا أول مرة يمنح فيها لفنان. وشعرت أميرات العائلة الحاكمة وزوجات رؤساء الوزارة بالتعاسة بعد أن منح الملك هذا الوسام لمغنية. وقالت إحدى الأميرات:

«سأرد للملك وسامه» .

وعلقت زوجة رئيس وزراء سابق :

«غداً ينعم الملك بالوسام على تحية كاريوكا» .

وشعرت أم كلثوم بالإهانة. والبعض نقل إليها هذه الاحتجاجات ووصل غضبها لحد البكاء. بقيت أم كلثوم غارقة في حزنها هذا وإذا بالهاتف يحمل لها صوت صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول قالت لها:

«مبروك يا أم كلثوم نيشان الكمال، وأنا يشرفني أن تحملي نفس الوسام الذي أحمله . . » .

واعتبرت أم كلثوم أن هذه المكالمة في حد ذاتها أهم من الوسام وذهبت إلى «أم المصريين» صفية زغلول تشكرها. ويُروى أن صفية وأم كلثوم ظلتا على علاقة جيدة جداً. (وأم المصريين) كانت تطرب لأغاني «تومة» الوطنية والدينية وبالذات الأنشودة التي نظمها خصيصاً أحمد رامي بعد وفاة سعد زغلول وغنتها أم كلثوم بعنوان «اذكروا سعد» .

●المرأة في تومة●

جمال أم كلثوم كان جزء من شخصيتها أو جزء من خلقها الفني فهي حين تقتني ثوباً جميلاً لم تكن تفعل ذلك باعتباره ضرورة اجتماعية وإنما هي تستخدم الفهم والذكاء في الاختيار لترتدي أو تلبس (بمزاج). قالت أم كلثوم يوماً للأستاذة نعمات أحمد فؤاد:

«إن اهتمامي بالفستان الذي أرتديه أمام الجمهور هو جزء من احترامي لهذا الجمهور والإنسان عندما يحترم أحداً فهو يهتم بمظهره أمامه».

إذن فهي ليست مجرد صوت جميل يتسلل إلى المشاعر والقلوب، ولكنها شخصية متفردة حتى في مظهرها الخارجي الذي احتل هو أيضاً مساحة من الاهتمام والعناية حتى صار «ايشارب أم كلثوم» تكتب من حوله الأخبار أما تغير موديل فستانها فيحتل العناوين.

قالت جريدة الأخبار القاهرية في عددها بتاريخ 8 كانون الأول ـ ديسمبر 1963 وبعنوان «أناقة أم كلثوم».

«لأول مرة تغير أم كلثوم في موديلات فساتينها التي ترتديها في حفلاتها. . ارتدت في أولى حفلاتها الغنائية هذا الموسم فستاناً أسود من الدانتيل المشغول كله بالخرز. . بسيطاً بدون تكلف صدره مقفل تماماً عليه بروش من ألماس على شكل هلال وأمسكت منديلاً بلون النار وعادت أم كلثوم إلى تسريحة شعرها القديم».

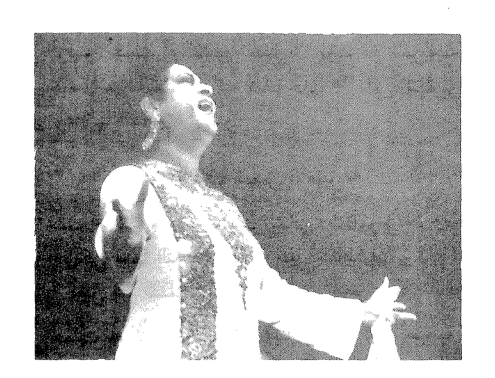
أحب الألوان إلى سيدة الغناء كان الأسود والتركواز والبني والأخضر ثم الأحمر والبنفسجي وأفضل الأحجار الكريمة إليها هو

حجـر الزفيـر. كانت أم كلثـوم تفضل ألا تغيـر من تسريحـة شعرهـا «الشينيون» وأشهر اكسســواراتها كـان حلق الألماس الـطويل وخـاتم سوليتيز وهلالها الماسي الشهير.

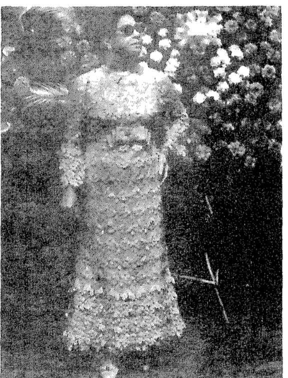
●غروب شمس الأصيل●

غنت أم كلثـوم في كـانـون الثـاني/ينــايـر 1973 وبكت على المسرح وبكى معها الناس.. لكن حفل شباط/فبراير 1973 ألغي أو أجل إلى أجل غير مسمى ومع ذلك رفض الناس إعادة تذاكرهـم.

حملت جرائد كانون الثـاني/ينايـر 1973 أنباء صحـة أم كلثوم في الصدارة ونشرت الأهرام في صفحتها الأولى التقرير الـطبي عنها ولم يحـدث هذا من قبـل لأي فنان أو وزيـر.. وانهـالت البـرقيـات والتلفـونات حتى نشـرات الأخبار الـرسمية كـانت تبدأ بـأنباء صحـة (تومة) حتى انضمت موجات الإذاعة لتذيع نبأ رحيـل شمسِ الأصيلِ في الفن.. مساء الثالث من شباط/فبراير وليبقى فنها خصباً وصادقـاً معبراً مرتبطاً بنسيج الأرض العربية.

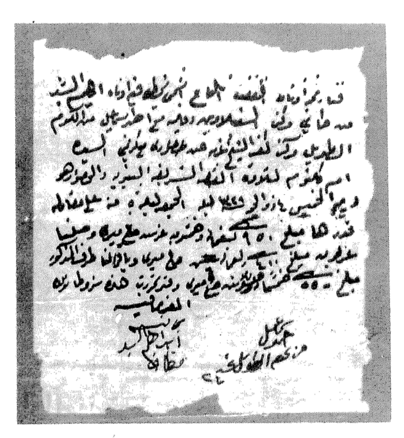








أم كلثوم



العقد الأول.. لم توقعه هي.



أسطورة ايفا بيرون

جثمانها جاب 5 دول وقارتين بعد أن اختفى 16 عاماً

■■«ماريا دوراثي» المرأة الأسطورة، عاشت حياة المرأة المحبوبة والمكروهة في آن في الأرجنتين. وبعد موتها 1952 نصبها السواد الأعظم من الشعب الأرجنتيني قديسة، وعندما سقط حكم الرئيس بيرون عام 1955 كانت أولى مهام الإنقلابيين إزالة آثار «ماريا دوراثي» أو «ايفيتا» كما كان الأرجنتينيون ينادونها تحبباً. . هدمت تماثيلها وأحرقت صورها وأوراقها الخاصة في احتفالات عامة بعد أن أخفوا جثمانها. . . ولكن ما لبث أن ظهرت من جديد عبر صورها الملصقة على الجدران ومن خلال أعمال جماعات إرهابية أعلنت حربها التخريبية على النظام باسم «ايفيتا». ووصل الأمر إلى اختطاف زعيم الانقلاب وقتله بعد أن رفض أو عجز عن الادلاء بسر اختفاء الجثمان الذي استمر محجوباً 16 عاماً، إلى أن اعترف«الجيش» أن «إيفيتا» دفنت في «ميلانو» تحت اسم «ماريا ماجن». ومن هناك من «ميلانو» إلى «بيونس آيرس» عاد الجثمان بعد أن جاب 5 دول وقارتين. . . فمن هي «ايفيتا»، ومن أين جاءت إلى الأسطورة؟■■

ولدت «ايفيتا» باسم ماريا دوراثي في قرية نائية من قرى الأرجنتين الفقيرة. الأم ـ طباخة من أصل اسباني، والأب (خوان

دوراثي) أحـد مـالكي الأراضي. لم تكن العـلاقـة شـرعيـة، لأن (خوان) كان متزوجاً. . كانت مثل هذه العلاقات متفشية في الـريف الأرجنتيني، يحميها العرف الاجتماعي السائد حيث يعتبر الـرجل الذي ليست لديه علاقات غير شـرعية مشكـوكاً في رجـولته. . هـذا عن الـرجل، أمـا المـرأة فقـد كـانت تعتبـر ـ ممتلكـاً ـ يحق لـه أن يتصـرف به حسب مـا تقتضي حاجتـه. . هذا عن المـرأة في الوسط الاجتمـاعي الفقيـر. الأمـر يختلف بين بنـات الـذوات حيث كـانت بكـارة البنت تمثل في نـظرهم (شـرف العـائلة) فكـان على السـادة الرجال أن يولوا غرائزهم شطر خادماتهم.

«خـوانا» كـانت واحدة منهن، عملت طـاهية في بيت «خـوان دوراثي» وعنـدمـا راقت لـه، حملت منـه، فنقلهـا إلى قـريـة بعيـدة واشترى لها بيتاً وأخذ يتردد عليها على امتداد 15 عامـاً أنجبت منه 4 بنـات وصبي. وعندمـا مات السيـد «خـوان» كـانت «مـاريـا» ـ التي ستعرف فيما بعد باسم «ايڤـا» أو «إيفيتا» ـ في السـابعة من عمـرها، أرادت الأم لأولادهـا أن يحضـروا جنـازة والـدهم، لكن الـزوجـة الشـرعية رفضت بعنـاد وإن لانت بعد تـوسط العم فسمحت لهم أن يمشوا في الجنازة بشرط أن يكونوا في مؤخرة طابور المشيعين.

-2-

بعـد وفاة العشيق الأول عثـرت الأم عن عشيق جـديـد، كـان العشيق هـذه المرة راديكـاليا في منتصف العمـر، يقطن بلدة هـادئة انتقلت إليهـا أيضـاً بصحبـة العـائلة حيث رأت لأول مـرة الشـوارع المرصوفـة والمباني ذات الـطوابق والسينما والقـطار كتبت «إيڤا» في مذكراتها فيما بعد:

«أذكـر كيف داهمني الجنون لعـدة أيام عنـدمـا اكتشفت لأول

مرة أن البشرية تنقسم إلى قسمين. . الأثرياء والفقراء والغريب أن حقيقة الفقر في ذلك الوقت لم تؤلمني بقدر ما آلمني وجود صنف آخر من الناس يرفلون في النعيم. . كل عام اعتدت أن اختزن شيئاً من السخط الذي دفعني من بعد للثورة والتمرد».

في تلك البلدان كانت «إيفا» الناحلة، الشاحبة، تتسلى بمشاهدة القطار القادم إلى البلدة أو بالذهاب إلى السينما، ثم أسند إليها دوراً ثانوياً في مسرحية مدرسية، يومها قررت أن تصبح ممثلة مشهورة فهربت مع مغن متجول في سيارة عتيقة إلى «بوينس آيرس».

-3-

بوينس آيرس في الثلاثينات، لم تكن عاصمة الأرجنتين فقط، كانت عاصمة الفن والأدب في اميركا اللاتينية. سكنت «ايفا» في فندق رخيص. زارت جميع الأماكن الفنية فكانت تقابل بالرفض والسخرية من ملامحها ولكنتها الريفية. . تراكمت عليها الديون، وعازها رغيف الخبز ومع ذلك كانت تضرب الأرض بحذائها المهترىء مشجعة نفسها:

«سأصبح يوماً أكبر نجمة في الأرجنتين».

وبدأت تصعد في آذار ـ مارس 1935 حازت على دور مسرحي ثانوي ثم دور ثانوي آخر، هجرت المغني المتجول إلى ممثل معروف، كانت ترفض أن تظل في مؤخرة لذا طفقت تعمل بإصرار وبشتى الأساليب والألاعيب.

● 1937 طلبت مقابلة رئيس تحرير مجلة فنية متخصصة في نشر صور الحالمين بالنجومية، وخرجت من مكتب رئيس التحرير بقصة حب ودور ثانوي في السينما. وكرت الأدوار السينمائية،

تحسنت أحوالها المادية، انتقلت إلى فندق أفضل، وقتها كانت الحرب العالمية الثانية دائرة، وثمن الحبوب والأبقار الأرجنتينية يرتفع. كانت «ايفا» قد تجاوزت العشرين من عمرها في أوج الحرب، عندما وقع في هواها صاحب مصنع صابون، استطاع أن يستعمل نفوذه لدى مخرج برامج إذاعية لكي يمنح «ايفا» فرصة القيام ببطولة برنامج إذاعي خاص بها. رضخ المخرج رغم معرفته الوثيقة أن «ايفا» بلا موهبة.

من الإذاعة بدأت انطلاقة «ايفا» من خلال اطلالتها على الشعب الأرجنتيني عبر مسلسل إذاعي بعنوان «مملكة الحب» والذي لأسباب ـ قد يكون أحدها الحظ أو الضجر من الحرب ـ استمرت إذاعته عاماً كاملاً بنجاح ساحق، أصبحت ايفا مشهورة وظهرت على غلاف مجلة الإذاعة مرتين، المجلة الأكثر انتشاراً في الأرجنتين.

-3-

●صيف 1934 وقع انقلاب عسكري، وبعد أيام ذات مساء أذهلت «ايفا» زميلاتها في الإذاعة عندما اعترفت لهنّ بأن رئيس الجمهورية الجديد «بدرو راميريز» صديق شخصي لها. ثم أدارت قرص الهاتف وخاطبت مقر الرئاسة وطلبت الرئيس بالاسم، ودارت بينهما محادثة قصيرة تم من خلالها الاتفاق على اللقاء لتناول العشاء.

●بداية عام 1944 وقع زلزال مروع دك «سان خوان» دكاً، وأزهق آلاف الأرواح، واستطاعت «ايفا» أن تقنع صديقها وزير الإعلام بإقامة حفل يحييه الفنانون مجاناً ويعود ريعه إلى صندوق إغاثة المنكوبين.

أثناء الحفل وصلت ايڤا متكئة على ذراع الوزير ودارت ببصرها بين الموجودين فلمحت عن بعد ممثلة مشهورة بجمالها تتحدث إلى ضابط طويل وسيم اسمه «خوان بيرون» وكان «بيرون» معروفاً بأنه من رجال الانقلاب الأقوياء.

تلك الليلة غادرت «ايڤا» الحفل متكئة على ذراع بيرون.

●18 تشرين الأول ـ اكتوبر 1945، تزوج «خوان دومنجو بيرون» «ماريا ايڤا دوراتي» زواجاً سرياً. 4 حزيران/يونيو 1946. أصبح بيرون رئيساً للأرجنتين و «ايڤا» السيدة الأولى. ومنذ البدء عزمت على التميّز. . شجعت الجميع بأن ينادوها بـ ايفيتا. . تنهض في السادسة صباحاً، تتناول إفطارها مع الرئيس ثم يخرج كل منهما إلى العمل. . اتخذت لنفسها مكتباً فاخراً في مبنى البريد حيث تمضي فترة الصباح في استقبال العمال والوفود النقابية والنسائية من المعلمات والممرضات اللاتي جئن للاستماع إلى آراء امرأة تعتقد أنها جاءت لتحرير المرأة الأرجنتينية.

ثم يأتي بعد ذلك دور كبار الموظفين ونواب البرلمان والوزراء الذين جاؤوا ليلتمسوا رضى السيدة الأولى.

في المساء تخرج لزيارة المصانع والمدارس والمناطق الفقيرة، بالإضافة إلى رحلات بين حين وآخر للقرى النائية لدعم نفوذ بيرون وأتباعه. وقد حرصت في كل ذلك على تركيز الأضواء الإعلامية على كافة النشاطات التي كانت تقوم بها. فقد كانت شاحنات كبيرة مزودة بمكبرات الصوت تسبقها إلى الشوارع معلنة حضورها. وبذلك كانت ايڤا تضمن أنها أينما ذهبت، ذهبت جموع غفيرة من الفقراء طمعاً بالفوز بهبة من الهبات التي اعتادت زوجة الرئيس أن توزعها عشوائياً. والطريف أن ايڤا كانت بارعة في

أساليب الخطابة الدرامية التي تحرك مشاعر البسطاء ـ مهارة اكتسبتها من التمثيل الميلودرامي بلا شك.

في الوقت الذي تحرك فيه مشاعر العامة إلى حد البكاء الهستيري أحياناً، كان أثرياء الأرجنتين ومثقفوها يتأففون من لهجتها السوقية، . لقد استطاعت أن تسيطر سيطرة تامة على أجهزة الإعلام إما بنظام المصالح المشتركة أو بالتهديد والإرهاب.

-5-

مثلاً. رشحت نفسها لرئاسة الجمعية النسائية الخيرية التي كانت تشرف عليها جماعة من سيدات الطبقة الراقية، ولكنها رُفضت بحجة أنها ما زالت صغيرة السن. فتقدمت بترشيح أمها، وبالطبع رفض اقتراحها، فلم يكن أحد يتصور أن القروية السمينة التي أنجبت خمسة أطفال غير شرعيين ولم تكن ثقافتها تتعدى مبادىء القراءة والكتابة يمكن أن ترأس جمعية خيرية كل أعضائها من سيدات الطبقة الأرستقراطية. وجدت ايفا هذا الرفض مبرراً قوياً لإعلان الحرب على الجمعية وسيداتها المتعجرفات. قبل أن تبدأ في تنفيذ ما نوته قررت أن تضع أقاربها في المراكز الحساسة، فبدأت بتعيين شقيقها في القصر الجمهوري كأمين خاص للرئيس، وتوسطت لتعيين صديق أمها في منصب وزير المواصلات، وزوج شقيقتها عضو في مجلس الشيوخ، وزوج شقيقتها الأخرى حاكم إقليم بيونس ايرس العسكري. وبدأ خصومها يهمسون بأن ما تفعله من أجل الفقراء وانتقامها من الأثرياء ما هو إلا تعبير عن عقدة اضطهاد.

-6-

●1947بدأت ايفا رحلة أوروبية طويلة. ابتدأت بزيارة اسبانيا حيث احتشد 200·000اسباني في استقبال ـ سيدة الأمل ـ كما أطلقوا

عليها ـ القادمة من أرض الأحلام بشعرها الأشقر المصفف وفستانها الحريري ومجوهراتها التي تخطف الأبصار. من اسبانيا كتب مراسل النيويورك تايمز:

«إن ملابس السيدة بيرون هي حديث المجتمع، لأنها لم تظهر بأي ثوب مرتين، بل اعتادت أن تبدل ثيابها ثلاث أو أربع مرات خلال اليوم الواحد. الهفوة الوحيدة التي أدهشت الجميع أنها ظهرت بعد ظهر يوم صيفي حار وقد ارتدت معطفاً من فراء «النك» الباهظ الثمن».

وخلال أيام ظهرت ايفيتا على غلاف مجلة التايم. ثم شوهدت في إيطاليا حيث التقت البابا بيوس الثاني، وفي فرنسا تناولت الغداء مع الرئيس والعشاء مع وزير الخارجية. وبعد شهرين من التجوال عادت إلى الأرجنتين لتجد في استقبالها 1250·000 أرجنتيني في مقدمتهم «بيرون» الذي طوقها بذراعيه باكياً.

ولكنه لم ينس أن ينتهز حضور الجموع الغفيرة ليشن هجوماً على أعدائه. وتضاعف الهتاف عندما تقدمت إيفيتا إلى الميكرفون وشنت هي الأخرى هجوماً على «الأعداء» الذين يروجون الإشاعات عنها وعن «الجنرال».

كانت الإشاعات الرائجة حينها تؤكد أن السنيور والسنيورا على خلاف، وأن السنيورا تحلم بأن تكون رئيسة وأنها أمرت بطبع آلاف المنشورات التي تحمل صورتها وعبارة «أول رئيسة أنثى» وتسترسل الإشاعة بأنها قد عزمت على دس السم في طعام بيرون.

-7-

●1952 أصيبت ايفيتا بالتهاب رئوي حاد مصحوب بالأنيميا، في أواخر السنة ظهرت للمرة الأخيرة في شرفة قصر الرئاسة، كان

نحولها قد زاد على الحد وظهر الإعياء بوضوح على وجهها.

كانت قد أصيبت بسرطان الرحم. تسربت الأنباء من القصر بأن زوجة الرئيس قد غابت عن الوعي تماماً وأصبحت تتلقى الغذاء عن طريق الحقن في الوريد.

خارج أسوار القصر كانت النساء الفقيرات راكعات، يرتفع نشيجهن في فضاء المدينة. وفي محاولة يائسة للتعلق بالأمل استدعي بيرون اثنين من كبار الأطباء المتخصصين في علاج السرطان من ألمانيا ولكنهما وصلا متأخرين، فقد أعلن طبيبها المعالج بعد ظهر يوم 26 تموز ـ يوليو 1952 وفاتها.

●1955. . وبعد وقوع الانقلاب ضد «بيرون» استطاع رئيس المخابرات الكولونيل كارلوس موري مع فرقة من رجاله اختطاف الجثمان بعد أن لفوه بالعلم الأرجنتيني وحملوه فوق شاحنة في انتظار تعليمات الرئيس الجديد. . ولفترة ظل الجثمان في شقة نائب الرئيس في بوينس ايرس. ولكن عندما اكتشف أتباع بيرون اختفاء الجثمان خاف الرئيس أن ينكشف سره وامتلأ رعباً لدرجة أنه كان ينام والمسدس بيده. . وذات صباح استيقظ من نومه وتناهت إلى سمعه أصوات مريبة فأطلق رصاصتين من مسدسه اخترقتا باب الغرفة. . ولما قام ليستكشف أدرك أنه أردى زوجته قتيلة. . كانت لسوء حظها قد استيقظت قبله لكي تذهب إلى دورة المياه. وفي أيلول ـ سبتمبر 1956 شحن الجثمان في طرد إلى السفارة الأرجنتينية في بون، وظل هناك بدون علم السفير، ثم أرسل إلى روما حيث دفن في مقبرة مجهولة.

وبعد 16 عاماً عاد جثمان «ايفيتا» إلى الترحال من جديد في طريق العودة إلى الأرجنتين لكي يرقد جنباً إلى جنب مع جثمان بيرون.



ايڤا بيرون

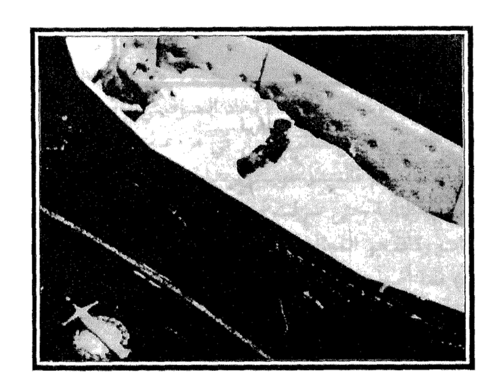
كانت محطات الإذاعة تذيع خطاباتها أربع مرات يومياً وأطلق اسمها على أكبر المنجزات والشوارع



ايڤيتا
أنشأت 10000 مدرسة و 60 مستشفى وملاجىء للعجزة وفنادق للمغتربات



إيفيتا ـ بيرون



جثمانها
جاب 5 دول وقارتين بعد أن اختفى 16 عاماً



قبرها
في ميلانو

ڤالنتينا تيرشكوفا
من الحلم إلى ريادة الفضاء

«أمنيتي أن أقود قطاراً ولو لمرة واحدة في حياتي»
●ڤالنتينا تيرشكوفا.

●ڤالنتينا تيرشكوفا أول امرأة في التاريخ البشري تصبح رائدة للفضاء. منذ طفولتها: تحدت الفقر والحاجة والحرمان واستطاعت أن تكون الاستثناء الكبير في القرن العشرين.

●ولدت ڤالنتينا تيرشكوفا في السادس من آذار/مارس عام 1937 بالقرب من ياروسلافل في الاتحاد السوفييتي، من والد فقير الحال كباقي أقاربها يعمل سائق جرار في مزرعة تقع في أحضان نهر الفوجا. ولم تنعم ڤالنتينا طويلاً برعاية الأب، فلم تكد تأتي الحرب العالمية الثانية حتى سرقت منها والدها وكان عمرها آنذاك ثماني سنوات وكان هو المعيل الوحيد للأسرة الكبيرة (ثلاث بنات وثلاثة أبناء) مما اضطرهم للرحيل برعاية الأم (الينا فيودورفنا) مع بقرة سائرين على الأقدام بحثاً عن لقمة العيش في مدينة ياروسلافل التي قبل أن يصلوها بحوالي خمسة أميال وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها قطاراً في حياتها. وتقول ڤالنتينا في مذكراتها: «لقدبهرنيمنظر القطار». . ومن هنا أصبحت أمنيتها أن تكون سائقة قطار بدلاً من سائقة جرار ـ حيث كانت تحب أن تصبح سائقة جرار

كوالدها ـ فمنظر والدها وحياته ومشاهدتها له أثرت فيها، فأرادت بالبداية أن تكون صورة عن أبيها في عمله، ولكن عندما رأت القطار غيرت اتجاهها وأمنيتها.

وفي مدينة ياروسلافل التحقت ڤالنتينا في مدرسة الأيتام الذين فقدوا آباءهم في الحرب العالمية الثانية. وقد برزت ڤالنتينا في صفها وأظهرت تفوقاً على كل رفاقها من الطلاب ليس في الدراسة فحسب بل تفوقت أيضاً في رياضة القفز. فكانت تقفز المسافات المرتفعة وتقول:

«إن القفز ليس للأولاد فقط، فالفتيات قادرات على ذلك أيضاً».

وفي سنة 1953 أكملت دراستها واجتازت الامتحان بتفوق. وكانت تريد الالتحاق بمدرسة السكك الحديدية تنفيذاً لرغبتها. ولكن والدتها عارضت بشدة وإصرار على عدم دخول ابنتها في ميدان قيادة القطارات رغم توسلات الإبنة التي لم تفلح بذلك. وكانت قد بلغت السابعة عشرة من العمر فما كان منها إلا أن بدأت في العمل في كومبينة كراسني بيريكوب للنسيج في ياروسلافل، وكانت تدرس بعد انتهاء العمل في المدرسة المسائية ذات الثمانية صفوف الخاصة بالشبيبة العاملة. وفي عام 1960 التحقت عن طريق المراسلة بكلية النسيج.. وكانت تيرشكوفا عضواً في منظمة الكومسمول في المصنع ثم سكرتيرة للمنظمة لعدة سنوات. وفي عام 1959 انضمت إلى نادي الطيران المحلي وقامت في نفس الوقت بالإشراف على دورة للهواة في المصنع للتدريب على القفز بالمظلات. وفي 12 نيسان/أبريل 1961 كان أعظم يوم في حياة

ڤالنتينا، حيث اقتحم أول إنسان بشري الفضاء، وعادت يومها ڤالنتينا إلى البيت وهي تقول:

«سوف يسمع العالم بعد مدة قصيرة عن فتاة تقوم بنفس العمل الذي قام به غاغارين رجل الفضاء، وإلا فما معنى المساواة بين الجنسين».

وفي تلك الفترة كانت أفضل الجميع من زملائها، وقد سجلت رقماً قياسياً، إذ كانت قد حققت 163 قفزة بالمظلة عندما انخرطت في صفوف رواد الفضاء في عام 1962. وسبق ذلك أن فازت ڤالنتينا بالانتخاب لعضوية الحزب كسكرتيرة لمنظمة الشباب في المصنع الذي تعمل فيه. وذات يوم تجاسرت ڤالنتينا ووجهت رسالة إلى موسكو تقول فيها:

«أعتقد أنني أول فتاة أكون صالحة لاقتحام الفضاء الكوني».

ولكنها لم تكن تتصور بأن هذا الحلم المعجزة سيتحقق. وفوجئت ذات يوم بلجنة من الأخصائيين تزور نادي الطيران وتسأل عنها. وعند الامتحان كانت في منتهى الاضطراب لكنها نجحت وأجابت على الأسئلة بهدوء. ولكنها لم تقل أي كلمة عن هذا اللقاء مع الأخصائيين في البيت. حتى عندما وجهت لها الدعوة للتدريب سافرت بعد أن أخبرت أهلها بأنها في إجازة. فقد أرادت الاحتفاظ بالسر حتى اللحظات الأخيرة.

وأثناء فترة التدريب تعرفت على رائد الفضاء «اندريان نيكولايين» الذي أصبح فيما بعد زوجها.

وفي الفضاء زغرد صوت الملاحة الحسناء وهي تلقي ببلاغها الأول وتقول:

«ڤالنتينا تيرشكوفا رائدة الفضاء الكوني مستعدة للانطلاق في السفينة الفضائية فوستوك6».

واندفع الصاروخ إلى أعلى ومن وسط الفضاء وجهت رسالة إلى زميلاتها وأصدقائها وختمتها إلى أمها وهي تقول:

«أمي.. هل تذكرين يوم قلت لي أنني لا أستطيع أن أقود قطاراً.. فما رأيك الآن».

وهكذا أنجزت ڤالنتينا أول رحلة من نوعها في تاريخ البشرية ولقد كانت ڤالنتينا أول امرأة تغزو الفضاء وتحولت إلى رمز هي للحلم الذي يرافق حياة الملايين من الفتيات في العالم، حلم التقدم والمشاركة والفرص المتكافئة للرجال والنساء، عندما قامت بطيرانها التاريخي عام 1963 وهي في سن السادسة والعشرين، مقدمة بذلك مساهمتها في سعي الإنسان لغزو الفضاء والدليل على أن النساء قادرات على تحقيق أعظم المنجزات الإنسانية الخلاقة في ميدان التكنولوجيا.

لقد صاغ الزمن الذي تعيش فيه وبيئتها والشعب الذي عرفته منذ الطفولة وسني الصبى أحلامها التي كانت مصدر كل هذه الإنجازات. فـ ياروسلافل التي تقع على ضفاف الفولغا أحد أقدم مدن روسيا القديمة. وقد جاء عنها في السجلات ما يلي:

«... وهي مبنية من الحجارة البيضاء، بهيجة وجميلة تخلب الأنظار ذات كنائس قديمة رائعة وقلاع وأبواب، مدينة ذات شخصية خاصة بها...».

وتتحدث ڤالنتينا عنها دائماً بعاطفة فهي المكان الذي سيبقى أقرب الأمكنة إلى قلبها وأجمل مكان على هذا الكوكب الأزرق

الذي سحرها جماله خلال أيام حزيران ـ يونيو الثلاثة التي استغرقها الطيران الفردي لـ «نورس الفضاء» تيرشكوفا.

يوجد في مركز مدينة ياروسلافل منتزه جميل قديم يضم نصباً ذا شعلة أبدية ملتهبة ليلاً ونهاراً. ويتألف النصب من قسمين، فإلى اليسار رأس جندي سوفييتي ذو خوذة معدنية محفور في صخر الغرانيت الأبيض، وتحته حفرت عبارة (المجد لأبطال الحرب). وإلى اليمين رأس امرأة عاملة وتحته عبارة (المجد لأبطال العمل). هذا النصب رمز للزمن الذي عاشت فيه ڤالنتينا طفولتها وصباها.

ويقع بيت جدتها، حيث ولدت، على بعد كيلومترات قليلة من هذا المكان. وهو بيت قديم من الخشب على طراز البيوت الريفية الروسية، تزينه قطع من الخشب المحفور والزخارف الملونة، بيت يشعر المرء فيه بالأمن. وقد أمضت أولى سنوات طفولتها في بيت مشابه. لهذا انتقل إليه والداها بعد ولادتها بفترة قصيرة. ويقع هذا البيت خارج القرية وسط بقعة واسعة تحيطها من إحدى الجهات غابة، ومنحدر عميق من الجهة الأخرى وخلف المنحدر تبدأ غابة مظلمة مبهمة إن ذكريات ڤالنتينا المبكرة تشمل أشياء أكثر من موطنها الواسع الهادىء المضاء بالشمس، فهي تتذكر زقزقة الطيور والجولات الطويلة في الغابة لغرض جمع الحطب واقماع أشجار الصنوبر والفطر والتوت البري. وتتضمن ذكرياتها المبكرة أيضاً الشريط الأسود الذي وضعته أمها على زاوية صورة شاب رقيق رشيق في بزة عسكرية كإشارة حداد. وكانت الصورة مثبتة على المساحة الضيقة الواقعة بين نافذتين. وكان الشاب هو والد ڤالنتينا، سائق جرار في المزرعة التعاونية. وقد استشهد في الجبهة عندما كانت ڤالنتينا في الثالثة وأختها لوزيا في الخامسة من

العمر. تقول ڤالنتينا «إنني أعرفه من الصغر فقط». وقد كتبت ڤالنتينا عن أمها تقول:

«كان الحزن والقلق يمزقان والدتي. وقد قدمت الدولة لها مساعدة مالية وقام الكولخوز بتقديم كل المساعدات الممكنة. إلا أن تربية الأطفال الصغار تقتضي بذل عناية متواصلة. ولا أدري كيف استطاعت أمي أن تقوم بذلك. متى كانت تنام؟ متى كانت تأكل؟ ولم يكن عملها كحالبة أبقار بالعمل السهل، وكانت تخصص كل الوقت المتبقي لرعايتنا. في سنوات الحرب الوطنية الكبرى كانت النساء الوحيدات اللواتي بقين في الكولخوز إضافة إلى الشيوخ والأطفال، وكانت الحياة في تلك السنوات صعبة للغاية. وكانت والدتي تقسم مواد التموين التي تأتي بها إلى البيت بيننا محتفظة بالقليل منها لنفسها، ولم يحدث أن سمعنا منها عبارة شكوى.».

«المجد لأبطال الحرب» «المجد لأبطال العمل».. لقد شيد هذا النصب في مركز مدينة ياروسلافل تخليداً لذكرى أناس مثل والدي ڤالنتينا.

●في عام 1945، وبعد وقت قصير على انتهاء الحرب، انتقلت أسرة ترشيكوفا إلى ياروسلافل. وتشرح ڤالنتينا ذلك بقولها:

«لقد ربتنا والدتي على احترام العمل. وقد ساعدناها بدورنا بقدر ما استطعنا. فكنا نحافظ على النظافة والنظام في غرفتنا الصغيرة ونجمع البطاطا في الحديقة، ونصلح جواربنا ونرقع ملابسنا. وكانت والدتي تحلم بأن نحصل على تعليم جيد. وكانت تريد مني أن ألتحق بالمدرسة الثانوية وأن أدرس الهندسة، ولم تقتنع برأيي في الالتحاق بالمدرسة المسائية والعمل في نفس الوقت.

وكانت تقول: ادرسي يا ابنتي. لقد خلفنا ما هو أسوأ وراءنا ومما زلت أمتلك القوة على مساعدتك.

ولكنني أعرف أنه كان من الضروري مساعدتها هي وتوفير وقت أطول لراحتها وكان كل أسبوع يمر يؤكد صحة الطريق الذي اخترته».

ياروسلافل القديمة، التي يعود عهدها إلى ما يقارب الألف عام، فيها يقع كهف في موقع بين نهري الفولغا والكوتوروسلا. في هذا الكهف خاض الأمير يارسولاف الحكيم معركته الأسطورية مع الدب الذي كان اللصوص الوثنيون قد عمدوه. وقد صرع الدب بفأسه وأسس مدينة وشجع الحرف والتجارة والزراعة. وفي هذه المنطقة وقعت أعنف المعارك ضد التتار. وفي ياروسلافل وجدت أقدم آثار الأدب.

لقد تربت هي وجيلها بروح البطولة التي لا تدانيها بطولة وبروح الإيثار والتضحية. وقد تعلمت وهي طفلة أن تكون مستقيمة في سلوكها، وأن تنجز كل عمل تقوم به حتى النهاية مهما كان صغيراً أو كبيراً، ومهما كانت الصعوبات التي تواجهها. إنها معروفة بطاقتها التي لا تنضب ومثابرتها وتمسكها النموذجي بالنظام وموهبتها الفائقة في التنظيم. يقول مدرسوها السابقون عنها أنها كانت على الدوام طالبة جيدة وحتى في المدرسة الابتدائية كانت هي المتفوقة في صفها. وعندما باشرت بعملها في كومبينة كراسني بيريكوب (مانيفا كتورة ياروسلافل سابقاً) وهي في سن السابعة عشر قالت لها المشرفة الشابة بلهجة الأخت الكبرى أن البداية لن تكون سهلة فكان جوابها:

«ولكنني سأنجز الواجب كما يجب».

وقد استطاعت بالفعل أن تنجز أشياء كثيرة: عملها، والدراسة المسائية في الكلية التكنيكية ومساعدة والدتها وبرنامج التدريب الشاق على القفز بالمظلة في نادي الطيران وعملها التطوعي كسكرتيرة لمنظمة الشبيبة.

وقد وجدت الوقت اللازم للعزف ضمن فرقة موسيقية من الشباب، وكانت قارئة متحمسة لمؤلفات نيكراسوف كاتبها المفضل، إلى جانب شولوخوف وآخرين غيرهم. وقد جعلتها طبيعتها الديناميكية وخلقها الرفاقي أكثر الفتيات شعبية في السفرات والرحلات والحفلات واللقاءات الرياضية. كانت تحب الجميع. وقد وعدت معلميها بقولها «لن أتوقف عن التعلم». وذات ليلة صافية السماء في الشتاء قالت لصديقتها في طريق عودتهما من حفلة عيد ميلاد وهي تنظر إلى النجوم:

«ما أروع التجوال بين تلك النجوم».

إن تتبع مراحل شباب ڤالنتينا يعني متابعة مراحل حلم تحقق:

حلم تحقق بفضل العمل الجاد والمثابرة ووجود شرط وأجواء ساعدت على تغذية هذا الحلم وديمومته.



١ ـ لحظات عائلية سعيدة زوجها أ. ك. نيكالايف

2 ـ لينا

3ـ في المؤتمر النسائي العالمي في موسكو في عام 1963.



-4توديع نيكالايف قبل طيرانه للمرة الثالثة

-5في زيارة لأحد المخيمات الفلسطينية.

-6مع عمال المناجم في تشيلي.



ڤالنتينا تيرشكوفا
والحلم الذي تحقق



مرغريت يورسنار
من أعماق النسيان إلى أوج الشهرة

«إنها إحدى أكبر أدباء هذا العصر» هكذا وصفها الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران. إنها «المرأة ـ الجزيرة» كما وصفتها جريدة لوموند. وفي حدود هاتين الصيغتين تمددت تلك الموهبة إلى خارج الحدود.

«المرأة ـ الجزيرة» لأنها بهامتها وصلابتها، تشبه صخرة منعزلة عليها تنكسر أنواء العالم المعاصر. منذ أكثر من أربعين سنة غادرت عصرها إلى تلك الجزيرة التي تشبه اسمها: «جزيرة الجبال المهجورة» (الشاطىء الشرقي من ولاية ماين الأميركية) «نعمة عظمى أن يعرف المرء العزلة مبكراً ـ تقول ـ فهي تعلمنا الاستغناء عن الآخرين، وتمنحنا مزيداً من المحبة لهم».

«إحدى أكبر أدباء العصر» لأنها تأسست في اللغتين اللتين صنعتا الحضارة الأوروبية: اللاتينية واليونا ، من ثم الإيطالية، فضلاً عن لغتها الفرنسية ـ بالولادة ـ والإنكليزي ـ بالهجرة). أتت الكتابة إذن من ذلك البعد السحيق، والعريق، الذي يزود العائد منه بنضج فكري وصلابة في القلب والقلم.

وتكلموا على تصوفها في الوحدة، التي أيبست عواطفها، ومنحتها جفافاً صلفاً، بمنأى عن الناس. تكلموا على المرأة التي

تعجن عجينها وتخبز خبزها بيدها. . في أميركا! المرأة التي تكتب كتباً مثل الرجال. خارج الكتابة أيضاً، قد تكون أقل من يصلح من النساء لتمثيل المرأة. تفكيراً وقلماً، هي بصلابة الرجل، وتعتبر التمييز بين الجنسين فصلاً عنصرياً. لذا لم تتحمس لدخول الأكاديمية كامرأة، ما دام هناك أربعون رجلاً.

والواقع، لم تصنع مرغريت يورسنار (وهو تصحيف للاسم الحقيقي كرايانكور) شيئاً مثل الآخرين:

«في الثامنة عشر من العمر، كنت أنظر إلى نفسي في المرآة وأقول: هذه هي أنا!! إنني مهمة ولا أحد يعرف ذلك».

هذا الحدس، لم يتحقق تماماً إلا في السادسة والسبعين من عمرها، عندما أخرجت من الغابة الأميركية إلى الأكاديمية الفرنسية فتكون أول امرأة، منذ ثلاثمئة سنة، تستقبلها الأكاديمية الفرنسية، بحضور رئيس الجمهورية وأجهزة التلفزة فتنتقل رأساً من النقيض إلى النقيض: من أعماق النسيان إلى أوج الشهرة. كذلك: دخلت العصر الحديث من التاريخ القديم: عصر الأمبراطور الروماني أدريان، وعصر الطبيب الهولندي زينون (السادس عشر). هذا إن الرجلان يمثلان أبرز نماذج للإنسان ـ تقول ـ لأنهما يمثلان عصور الإنسان في مغامرته الأبدية. الواقع، هي امرأة لم تأبه للحداثة. لم تغوها «الموضة». لم تقرأ ما يكتب اليوم. كتبت وكأنما الأبدية مجالها. (لها كتاب بعنوان «ماذا الأبداية؟»).

في الخمسين من العمر عرفت الشهرة الأكيدة مع كتاب «مذكرات ادريان» حيث دونت مغامرة رجل فذ في لحظة فذة من لحظات التاريخ. لماذا التاريخ؟. لأن الحاضر لا يخضع لحكم العقل. التاريخ يتحمل البحث والفعلانية لأنه حياة تجمدت. لذا لا

يهمها الحاضر. ولا الغد لينال منها. . فهي انسجام دائمٌ صارم بين الوجدان والتأمل، يحتدم في زمن معين باتجاه تجاوز الحدود الزمنية.

نعم. لم تصنع هذه المرأة شيئاً مثل الآخرين. لم تذهب إلى المدرسة. تعلمت في البيت: «طبعاً كان لي معلمون ـ في العاشرة من العمر بدأت بمطالعة اللاتينيين القدماء وفي الثانية عشرة اليونانيين.

ولدت في بروكسل في الثامن من حزيران/يونيو 1903 من والد فرنسي ووالدة بلجيكية. لا يهم مكان الولادة ـ تقول ـ التأقلم بمكان غير مهم ما دام الإنسان في ترحله يحمل العالم في حقائبه». خلافاً لنظرية التجذّر في الأرض، التي يقول بها موريس بارّيس، ترى «أن الإنسان حيثما يكون، يموت فوق كوكب».

من مآثرها: «فرنسا بلد الموضة ـ يتكلمون فيها على الأفكار وكأنها قبعات». «جميع العصبيات مستكرة حتى تعصب المرأة للمرأة». «عندما يستشرف الإنسان الأشياء من المطلات العالمية، تتلاشى في نظره النتائج القريبة، لا يهمه إلا الخلود».

«الإنسان شيء قليل من هذا الكون. لكن هذا القليل استطاع أن يدرك الكثير».

أبرز ما يلفت عند مرغريت يورسنار، صلابة الإنشاء. فهي ذات أسلوب صقيل منضبط، متزن، تسيطر عليه صرامة العقل وقساوة القلب. القلب الذي يزن عواطفه بميزان اتهم بالشح لفرط ما توخى الدقة. لهذا. لهذا بالضبط، رأينا ـ إرواء للفضول ـ أن

نقتصر، من آرائها، على رأيها في الشيء الوحيد الذي شكك فيه الناس عندها: الحب.

هذه العبقرية الباردة هل عرفت الحب؟ هل أحبّت في حياتها إنساناً حقيقياً غير الأمبراطور ادريان، وألكسي، خليقتيها الفذتين. لا نعرف الجواب. بالعكس نعرف نظرتها الثاقبة إلى الحب.

●●«الفرنسيون جعلوا الحب أسلوباً إنشائياً. شكلاً من أشكال الحب. من ثم آمنوا بهذا الأسلوب، وألزموا أنفسهم به إلى حد ما. وما كانوا ليعيشوا الحب بطريقة أخرى لو أنهم لم يبتكروا هذا النوع من أدب الحب.

في هذا يقول لاروشفوكو:

«كثيرون من الناس ما كانوا ليعشقوا لو أنهم لم يسمعوا غيرهم يتكلم عن الحب».

أظن الناس، في فرنسا عرضة أكثر من سواهم لهذا النوع من الحب الأسلوبي، الذي هو أقرب إلى الانفصال والشهوانية والغيرة والطموح. أي: إلى النجاح قرب المرأة».

●●«عبقرية ألكسي تقوم في التمييز بين العواطف، وعدم خلط عاطفة الحب بغيرها. إذ علينا أن ندرك تماماً ماذا نفهم بكلمة حب. فإذا كنا نعني بها ذلك النوع من العبادة التي يكنها شخص لآخر، مقتنعاً بأنهما إنما خلقا لبعضهما وأنهما يتشابهان تشابهاً منقطع النظير. فهذا وهم. لأنه يجب أن نحب ما هو في الحقيقة والواقع، لا ما هو في الخيال والمرتجى. هذا «الحب الواقعي». هو حب الألفة والتعاطف: شعور رقيق نحو إنسان آخر يشاركنا مصادفاتنا وأحوالنا. وليس هذا الحب أفلاطونياً بتاتاً: فالشهوة تبقى

أساسه. لكن العطف العميق يغلب فيه على كل الهوى».

●●«هناك شيء كان يزعجني دائماً في المفهوم الفرنسي للحب. بل في جميع المفاهيم الأوروبية: هو انعدام البعد المقدس من الحب ربما بسبب ذلك الإرث السيكولوجي الذي نرزح تحت وطأته منذ خمسة عشر قرناً، فقدنا الشعور بأن الحب، والعلاقات الشهوانية ذاتها، بل مجرد العلاقات اليومية العادية، هي علاقات مكرسة. ذلك أن العلاقات الحسية هي ظاهرة كبرى من الظواهر الكونية. (كإنما هي تجسيد للكون في الفرد).

خلافاً للعروسة الهندوسية، التي كانت تشعر في أثناء الزواج بأنها تمثل، ولو إلى لحظة وجيزة، الربة «سيتا» في زفافها إلى «راما». أقول: خلافاً لذلك، فإن معظم العشاق اليوم قد فقدوا مثل هذا الشعور. لذلك يجب إعادة التكريس إلى الانعطاف الحسي نحو إنسان آخر.

مثل هذا الرباط العاطفي لا أعرف له مثيلاً في المدينات الحديثة. محتمل أن يكون قدماء اليونان عرفوا شيئاً منه. لذا بالغوا في احترام الزواج.

... أكمل أنواع الزواج (نظرياً - إذ لا أحد يعرف مدى ممارسته في الشعائر الحقيقية) هو ما سماه الهندوس الـ «ماي توما» .. ويقوم في التمرس ببناء ألفة حميمية بين العروس وعريسها قبل الاتحاد الكلي. على أنه مراس معقد وشائك أقرب إلى الابتكار الفني في تمثيل الاتحاد بين شخصين عبر شخصية الإله راما».

●●«.. نحن في عصر يميل إلى إعلان شأن الملاذ كغاية بذاتها وليس كوسيلة من وسائل المعرفة، أو كميل إلى آخر. يجب

أن نعيد إلى الحب شيئاً من العاطفة الصوفية، التي تقود العاشق نحو الكائن الأسمى - أو نحو أي كائن مهما تدانى في السمو. هذا المفهوم العاطفي لم يمارسه الشعراء ولا الروائيون الغربيون. ربما كان الروس قريبين منه قليلاً. أعثر على شيء منه عند شخصية جد محتقرة من شخصيات فلوبير الروائية، لكنهاشخصية مؤثرة جداً: هي السيد بوفاري».

●●«إن التظاهر بالتحرر من العادات والتقاليد قد زوّر مفهوم الحب في الغرب. لذلك ترى الحب تعيساً مأساوياً في الأدب الفرنسي المعاصر. لأنه حب صلف، باطل. والتحرر، في هذا المجال، أقرب إلى التوهم منه إلى الحقيقة: لقد صار الحب موضة أو عادة اجتماعية».

●●«معظم الناس لا يميزون بين الحب والعشق، لأنهم يعتبرون العشق عاطفة مثل الحب، لكنها أقوى قليلاً. بلغة دقيقة يمكن القول أنهما عاطفتان متناقضتان تقريباً. ففي العشق، تطغى الرغبة في الاستملاك. بينما الحب تضحية بالذات وتجرد. لاحظ أن العشق من الناحية اللّغائية هو العكس: إنه حالة سلبية (من حيث أن الإنسان يتكبد فيه شيئا كالألم مثلاً). بينما الحب حال ناشطة إيجابية.

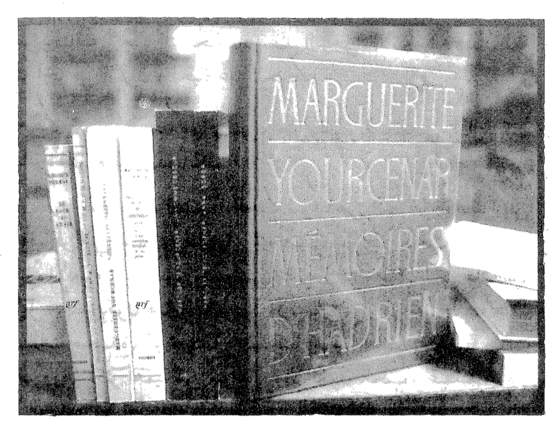
بالرغم من أن عمر العشق أقصر، فإنه يعسر التفريق بين حب كبير وعشق كبير.

هناك أيضاً، الحب المعبر. ينشأ عادة بين امرأة ورجل ذي مصير خارق. مثل حب لور للشاعر بترارك. أو حب بياتريس للشاعر دانتي. أو حب جولييت للشاعر فيكتور هوغو. بالنسبة إلى الرجل،

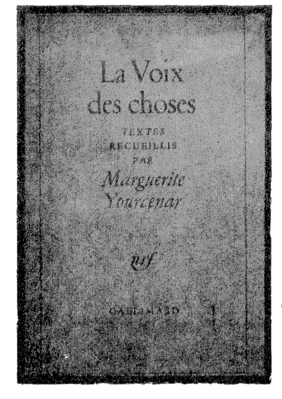
الأمر يختلف. حب التضحية نادر عند الرجل. لأنه يشعر بأن ثمة شيئاً آخر في الكون والحياة غير الحب».

●●«. . الحب هو فوضى، مثل العبقرية بالمعنى الذي كان توماس مان يعطيه لهذه الكلمة.

. . الأقدمون اعتبروا الحب نوعاً من المرض ـ نظراً إلى المخاطر التي ينطوي عليها. شخصياً، لا أظن الحب، ما يراه بعض الأدباء الفرنسيين، مركز الثقل في الحياة. ليس دائماً، بالأقل. فقد يكون هاوية الوجود الإنساني، أو ذروته. طبعاً هناك لحظات سعيدة، أو تعيسة، يمنحنا إياها الحب. لكنها ليست بالضرورة، أكثر أهمية من سواها. وإلا يكون الحب، عندئذ، أكثر من الحب، ولا تعبّر عنه الكلمات».



من مؤلفاتها



صوت الأشياء: آخر كتبها.



في بيتها



في الأكاديمية



العيون المفتوحة



مرغريت يورسنار
وافتها المنية عن أربعة وثمانين عاماً، ليل السابع عشر من كانون أول ـ ديسمبر 1987



الأسطورة مارلين مونرو

كانت ثمرة أب مجهول وأم مجنونة

■■الأسطورة التي شغلت الدنيا التي رحلت عنها منذ ما ينيف على ربع قرن، كانت ثمرة أب مجهول وأم مجنونة، «نورماجين» المسماة «مارلين مونرو»، والتي ما زالت العديد من الممثلات يحاولن تقليد شعرها، جسدها، كل ما أحاط بصورتها من سحر وأسرار. . وكما حياتها كان موتها شاغل الناس والرأي العام. ■■

مارلين بعد موتها، كسرت الصورة اللماعة وتبددت الهالة التي كانت تحيط بها وعادت من جديد «نورماجين» الباحثة بين الخصلات الشقراء والفساتين الضيقة عن حقيقة تلك الطفلة المرأة التي عاشت طفولة يتيمة حملتها معها كجرح نازف تلعقه الأضواء وتخفيه مراهم الشمبانيا والابتسامة المبلل طرفها بحزن بعيد مرتبط بخوف من جنون عُرفت به أمها وعائلتها وخافت أن يطالها هذا الجنون.

●عن أمها تقول لمجلة (ماري كلير) الفرنسية:

●لم أعش مع أمي في طفولتي. . حين أعود بالذاكرة إلى الماضي أجد أنني تربيت في بيت داخلي عند أناس أغراب لأن أمي كانت

«مونتيرة» أفلام. كانت تعمل بظروف قاسية وهي عليلة الصحة. . لذا أوكلت تربيتي إلى هؤلاء الناس.

● أمي كان عندها اختلال عقلي، وأهلها ماتوا بمصح مجانين. . . حتى أمي كانت تسجن في هذا المصح فترات لكنها تخرج من وقت لآخر وما تلبث أن تعود إلى اختلالها العقلي.

● اكتشفت في سن الثالثة من عمري وأنا آخذ حماماً طفوليا أن المرأة التي تغسلني ليست أمي حين ناديتها بأمي. . قالت: أنا لست أمك. . أنا خالة لك. وحين سألتها إذا كان زوجها والدي: قالت: لا. وحين صعب على طفولتي فك اللغز أفهمتني المرأة أن تلك السيدة الحمراء الشعر التي تزورهم هي أمي.

● من بعدها عرفت أحضان عائلات كثيرة منها المتدين، منها القاسي الذي كان يحاول تربيتي بكرباج صغير.

● اكتشفت عالم السينما عن طريق عائلة انكليزية كانت تصحبني في سن الثامنة إلى السينما وتتركني أتسلى بمشاهدة القرود في قفص قبالة سينما مصر. كنت في أغلب الأوقات أقيس قدمي الصغيرتين في قوالب أقدام النجوم على مدخل (الغومنز) لكنني لم أنجح أبداً في معرفة أحجام أقدام النجوم لأن حذائي كان أكبر من قدمي وكان ينزلق حين أحاول إدخاله.

● من بعد ذلك. . أصبحت السينما جنتي السرية كنت أدفع بضعة قروش وأتصدر المقاعد الأمامية لأرى كل أنواع الأفلام التي تعرضها الصالات. . من تلك الفترة حفظت ذاكرتي فيلم (كيلوبترا) للمثلة «كلوديت كولبير».

● ذات صباح قادتني العائلة الانكليزية دون شرح إلى ميتم وهناك

بدأت معي عقدة التلعثم في الكلام التي رافقتني زمناً طويلاً. وما زال التلعثم يزورني كلما كنت غاضبة أو تكلمت بسرعة.

●في فترة الحرب عملت في مصنع مظلات للطيران.. وقد جاء فريق من الجيش الجوي لتصوير المصنع فسألني المدير إن كان يهمني أن أكون موديلاً للمصور.

●المصورون اهتموا بي وطلبوا مني صوراً أخرى خارج المعمل بعد حصولهم على الإذن من رب العمل،. عملت موديلاً لعدد منهم.. المصور دافيد كونوفير عرض علي أن أتخلى عن العمل في المعمل وأن أتحول إلى موديل لأنني بهذا أكسب خمسة دولارات بسهولة.

●في نهاية الحرب حصلت على عمل في وكالة صور وهو موديل لروزنامات.. هذه المهنة سمحت لي أن أحقق حلماً راودني هو تعلم الفن الدرامي الذي كانت ساعته بعشرة دولارات.

●الصدفة وحدها جعلت مني نجمة خمسة غلافات لمجلات مختلفة في شهر واحد. هذا الحظ هو الذي فتح أمامي باب «فوكس» فأرسلوا بطلبي.

●شهرتي كان وراءها شخص يدعى بن ليون.. هو أول من منحني ثقته وأعطاني اسمي الذي اشتهرت به فيما بعد.

●اسطورة مارلين المثيرة الغبية الحفيفة، بدأت من تلك الصور أسرتني وسجنتني في قالب واحد لم أستطع كسره.

●ما استطعت يوماً أن أتأقلم مع ماكينة السرعة التي تفرضها هوليوود على ناسها. لقد اتهموني دائماً بالتأخير وبعدم احترام مواعيد التصوير. وهذا لم يكن مقصوداً ولم يكن ظرفاً فرضته على

المخرجين الذين تعاملت معهم من موقع نجوميتي. بل لأنني أسير على إيقاع رتيب. آخذ وقتي في الماكياج وفي اختيار الملابس وفي حفظ الدور. حبي للكمال في تقديم أدواري كان يتطلب مني وقتاً أكثر من الغير وهذا شيء لم أسامح عليه.

●كنت أحاول أن أجعل من عملي متعة وليس عبئاً هذه السعادة الصغيرة في جعل الوقت مساحة فضفاضة كلفتني سوء فهم مع محيطي. فكيف يطلب مني أن أكون نجمة كبيرة بوقت ضيق وعلى أعصابي. النجومية تتطلب الوقت والجهد والنوم الكافي ومن أين لي بهذا في مهنة كمهنتي. كنت أسرق من الزمن سعادتي الصغيرة لحظات راحة أحتاجها لأتوازن.

●لم أستطع يوماً فصل حياتي المهنية عن حياتي الخاصة. كانتا متداخلتين بشكل أكثر من حميم. وكانت كل منهما تعكس مآسيها وسعادتها على الأخرى. لذا لا أستطيع القول أنني امرأة سعيدة. حين يحاول الفنان أن يبحث عن الحقيقة فهو في محاولته يقترب من حافة الجنون. فبين الصورة المباعة وبين الوجه العاري تناقضات وأكاذيب تخنقك حبالها.

●ارثر ميللر. كان محطة حب هامة في حياتي.. وهو غير الكثير في شخصيتي. من أول زواج لي في السادسة عشرة مع جيمس دوغرتي في سنة 1942 حتى «آرثر ميللر» حياة عرفت فيها رجالاً حصدت منهم الخيبات والفرح.

●كانت الكاميرا هي النافذة الصغيرة التي تضيء ظلمة حياتي الخاصة. وأنا أمثل فيلماً أفكر بكل هؤلاء الفقراء الذين يحرمون أنفسهم من أشياء كثيرة لمشاهدة فيلم لي أو لغيري.. هؤلاء يشترون في عتمة الصالة سعادة وهمية لا تعطيهم الحق فيها الحياة

القاسية في بعض الأحيان. حين أحاول إجادة دوري أفكر بهم.. بخيبتهم لو فشلت.

● الحب والعمل هما الحقيقة الوحيدة في حياتي. اليوم أنا في الرابعة والثلاثين.. عندي كم سنة لأعمل ولأحقق ما أحب في السينما والحياة. هذا طموحي الوحيد.

● أنا بطيئة في مسيرتي نحو الأشياء. لكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي أتعامل بها مع الدنيا.. قد لا تكون الأفضل ولكن هناك دائماً متسع من الوقت لفرح بسيط.



هذا الثوب الأحمر
في فيلم (نياغارا)
هو الذي خلق
أسطورة مارلين
صاحبة الجسد
الصاخب.



مارلين في صور مختلفة من مراحل زمنية مختلفة
الأسطورة المتغيرة



ارثر ميللر: محطة حب هامة



أغلفة المجلات التي استضافت مارلين

نساء الثمانينات

سلطة ـ تمرد ـ ثورة ـ حب

الثمانينات. . عقد الأخبار النسائية الكثيرة، بعضها يثلج الصدر في زمن القحط، والبعض الآخر يدمي العين لندرة الدمع.

المعاناة النسائية في العالم تتشابه، لكن الإنجازات تختلف، وكذلك طرق الوصول إلى الهدف، والمناخات المتباينة، تفرض نفسها أحياناً فتطبع المجتمع بنمط له انعكاسات على مجمل النشاطات فيؤخر عملية الوصول أو يبترها من جذورها فتموت إلى الأبد.

المرأة في العالم أيضاً واحدة. لها نفس المقاييس والتطلعات والحلم بالوصول. لكن البعض يرى الحياة نادياً للاسترخاء فيتلهى بالقشور ويقطف ثمار المجد من خلال وجه جميل، أو جسد ممشوق أو إطلالة تصفق لها الأيدي، في حين أن البعض الآخر لا يقنع بأقل من منصب قيادي يدير من خلاله شؤون مجتمعه ويحلم بالوصول معه إلى قمة المجد، من خلال إيمانه بأن الفرد يعمل للمجموعة والمجموعة لا تكتمل إلا بسعادة الفرد.

وهذا النوع الثاني هو الذي يرى الحياة ملعباً للمصارعة بين الجهل والعلم، وبين التخلف والتطور، وبين أن يكون المسؤول في

خدمة العامة، أو العامة في خدمة المسؤول. ومن هنا تختلف نظرة المرأة للحياة، كما يختلف تقويم الحياة لهذه النظرة.

-1-

شهدت الدول العالمية ازدهاراً في النشاط النسائي خلال الثمانينات من الفلبين حيث گورازون أوكينو رئيسة بدل ماركوس. إلى تاكاكوري دوي أول يابانية ترأس حزباً سياسياً كبيراً في اليابان. ثم «غروهارلو» التي شكلت حكومتها الزوجية. وبنازير بوتو التي وصلت إلى ماوصلت إليه أوكينو. وأخيراً رئيسة إيسلندا «فيغديس فينبو غادوتير» التي استقبلت في بلادها وبيتها الرئيسين الجبارين ريغان وغورباتشوف أثناء انعقاد مؤتمر «ريكيافيك» ومعهن تبدأ الرحلة التي تثلج الصدور.

المرأة الضبابية.. كورازون أوكينو

كورازون أوكينو، اسم لامراءة ضبابية، انقشعت عنها الغيوم ربيع 1986، نحيلة، قصيرة، في قسمات وجهها قسوة التصدي وانتقام المكتوي. فجعت برفيق عمرها يسقط صريعاً وهو يدخل أرض الوطن، بعد رواية العفو عنه من قبل رئيس البلاد فرديناند ماركوس.

حملت أرملته الحقد في قلبها، والانتقام في عقلها، وعملت للإطاحة بماركوس متكلة على قوتين أساسيتين في البلاد، الشعب من جهة ورجال الدين من جهة ثانية.

وغداة الانتخابات التي شهدت تزويرات كثيرة لم تفلح. قال

الشعب الفليبيني في 25 شباط ـ نوفمبر 1986 «رحل ماركوس. . عاشت أوكينو». . والمرأة النحيلة، القصيرة، السمراء، تبوأت عرش السلطة بعد معارك طاحنة تخللتها تصفيات ومؤامرات وأعمال شغب، بالإضافة إلى محاولات غش في الانتخابات من قبل الرئيس السابق فرديناند ماركوس.

لكن ما انتظر أوكينو كان كبيراً إلى حد الانهاك. لكنها صممت على التغلب والانتصار. ففي 1986-4-21 جرت محاولة لاغتيالها بوضع عبوة أمام مكتبها، نجت منها. وكانت النتيجة أنها بدل الخنوع والاستسلام، بدأت النشاط وزارت الدول المجاورة لسنّ الاتفاقيات ومتابعة مفاوضات السلام. وتوجت هذه النشاطات بزيارة في 1986-9-16 قامت بها إلى الولايات المتحدة حيث قابلت الرئيس رونالد ريغان، ومنحت دكتوراه فخرية في الحقوق من جامعة بوسطن. كما ألقت خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. وحصلت على دعم وقروض أميركية بلغت ملياراً ونصف المليار من الدولارات الأمريكية.

●في مطلع العام 1986 اختارتها مجلة «تايم» الأميركية لتكون سيدة العام. . غير أن المجلة نفسها في مطلع العام تساءلت: هل يمكن انقاذ كوري؟. فهذه المرأة التي دخلت عالم السياسة مصادفة بعد مصرع زوجها الذي كان من أعتى وأشد معارضي حكم ماركوس في الفيليبين، والتي يمكن أن توصف بأنها «امرأة بديلة عن رجل» اضطرت أن تواجه الحقيقة أمام أعضاء غرفة تجارة مانيلا إذ قالت:

إن السؤال الذي تتحرقون إلى معرفة جوابه هو:

هل تستطيع هذه المرأة أن تصمد؟
أليس امرأة بالغة الضعف؟.
ألم ينته شهر عسلها في السلطة؟.

وبالطبع لم تقدم كوري أي جواب عن هذه الأسئلة مكتفية بالإشارة إلى أن الإطاحة بماركوس دون حوادث عنف كان معجزة 1986، وإن استمرارها في السلطة كان معجزة السنوات التالية. برغم تحركات العسكريين وثورة اليسار وخمس محاولات انقلابية للإطاحة بها.

وتشد كوري في أحاديثها على ما أنجزته، وفي طليعته توطيد دعائم الديمقراطية البرلمانية وهو ما قضى عليه ماركوس قضاء تاماً، وإشاعة مناخ من الحرية بشكل لم يسبق للفيليبيين أن عرفت مثيلاً له منذ سنوات طويلة، وإجراء انتخابات تشريعية حرة وانتخابات بلدية نزيهة، هذا بالإضافة إلى انعاش اقتصاد الفيليبين حتى بلغت نسبة النمو 5% زيادة عن العام الفائت.

إن أهل الفيليبين على قناعة بأن كوري إنسانة مخلصة وفية ونظيفة، ويلقبونها دائماً بلقب «تيتا» أي العمّة.

وفي مجال الدفاع عن نفسها قالت كوري:

«إن كوني امرأة أسهم كثيراً في توجيه الانتقادات اليّ واتهامي بالفشل.. ولذلك فإن على المرأة أن تنجح مرتين. ولو أني رجل لتحدث الجميع عن منجزاتي الباهرة.».

3ـ نساء التاج البريطاني

العرش البريطاني الذي لا تغيب عنه الشمس، تحميه 4 نساء يسرقن أضواء العالم بنشاطهن المتواصل كي لا تغيب «فلاشات» الأنباء عنه.

●الأولى هي ملكة البلاد اليزابيت الثانية، وهي من أكثر الناس ثراءً في بريطانيا.

●المرأة الثانية التي تعتبر محط أنظار العالم هي رئيسة الوزراء مرغريت تاتشر أو المرأة الحديدية التي دخلت مقر رئاسة الوزارة البريطانية في 4 أيار 1979 وما زالت مقيمة فيه حتى الآن وسجلت بذلك رقماً قياسياً فاق كل الأرقام التي سجلت في هذا القرن، وتفوقت بذلك على هربرت هنري الذي بقي رئيساً للوزراء من العام 1908 إلى العام 1916.

ومن باب السخرية يقولون أن مرغريت تاتشر تستطيع أن تضرب الرقم القياسي على امتداد التاريخ البريطاني بأسره إذا هي بقيت رئيسة للوزراء حتى يوم 14 آذار من العام 2000 لأن الشخص الذي ما يزال حتى الآن على رأس اللائحة في هذا المضمار هو السير روبرت والبول الذي بقي رئيساً للوزارة في بريطانيا من العام 1721 حتى العام 1742!!

وعندما قرأت تاتشر هذا التعليق واكتفت بالابتسام وكأنها تريد أن تقول بذلك للمحيطين بها والعاملين معها أن كل شيء ممكن.. وستصبح في الرابعة والسبعين في آذار عام 2000.. وهي في تلك

السنة ستكون أصغر بثلاث سنوات من ونستون تشرشل عندما عاد إلى السلطة في العام 1951.

وكلما واجهتها أحد بسؤال حول الموعد الذي تراه ملائماً لكي تنسحب من المسرح السياسي وتتقاعد تجيب قائلة:

إنني أريد أن أعمل كثيراً ولفترة طويلة.. أريد أن أعمل دائماً.

●المرأة الثالثة التي دخلت العرش البريطاني وأضفت عليه بريقاً خاصاً، هي ديانا أو الليدي دي زوجة ولي العهد الأمير تشارلز.

●والمرأة الرابعة التي دخلت البلاط البريطاني، هي ساره فيرغسون زوجة الأمير أندرو.

4ـ قياديات

1-لقاء «ريكافيك» بين الرئيسين ريغان الأميركي وغورباتشوف السوفياتي استنفر وسائل الإعلام العالمية وشغلها كثيراً. لكن ما لم يقل عن المؤتمر أنه عقد في بلد تحكمه امرأة هي فيغديس فينبوغادويتر رئيسة ايسلندا التي وقفت على أرض مطار كفلافيك لاستقبال غورباتشوف وريغان، ثم استقبالهما في منزلها.

2ـ تاكاكودوي، أول سيدة ترأس حزباً سياسياً كبيراً في اليابان بعدما انتخبت زعيمة للحزب الاشتراكي الياباني بغالبية كبيرة.

3ـ في النرويج، وبعد ما قدم كارويلوك رئيس الوزراء

استقالته، كلفت السيدة غروهارلو بروند تلاند، زعيمة حزب العمال النروجي، تشكيل حكومة فقبلت التكليف وأعلنت في 86-5-9 وزارتها الجديدة التي ضمت 18 وزيراً بينهم 8سيدات. وهو رقم قياسي عالمي في توزير السيدات.

4-سير يمافو بندرانكية، كثيرون يتذكرونها كرئيسة وزراء سيريلانكا بين 1965 -1960 و 1977 -1970. وقليلون يعرفون أن مجلس النواب جردها من حقوقها المدنية وطردها من مجلس النواب مدة 7 سنوات، بدأت في تشرين الأول عام 1980. إلا أن الرئيس جونيوس جايواردين منحها عفواً حراً وسمح لها بمعاودة نشاطها السياسي على نحو أشد قوة منذ مطلع عام 1986. وهي رئيسة حزب «حرية سيريلانكا».

5ـ مشاهير

1-كارولين دوموناكو، شاغلة إمارة موناكو قبل وبعد زواجها من فيليب جونو، ثم ارتباطها برجل الأعمال الإيطالي كاسيراغي قبل طلاقها من الأول، أنجبت في 1986 -8-3 مولودتها شارلوت الثانية بعد شقيقها البكر اندريا. وطالما الوقفة في بلاط موناكو، فالأميرة ستيفاني، وحسب رأي مصمم الأزياء الأميركي المشهور بلاكويل، هي واحدة من 10 نساء يعتبرن الأقل أناقة في العالم.

2- كارولين كيندي، ابنة جاكلين من زوجها الأول الرئيس الأميركي الراحل جون كينـدي، اشتهرت بعد زواجها من الفنان ادوين شلوسبرغ البالغ من العمر 4 سنة عام 1989.

6ـ شغب نسائي

1-من النساء التي تتسلط عليهن الأضواء هناك البيغوم خالدة ضيا (50 سنة) وهي أرملة الرئيس ضياء الرحمن الذي قتل في أيار 1980 أثناء انقلاب عسكري في بانغلادش وهي زعيمة 7 أحزاب (يمين الوسط).

2-وهناك حسينة (40)سنة التي فقدت أباها الشيخ مجيب مؤسس دولة بنغلادش والذي قتل أثناء الانقلاب الذي وقع في آب 1975 والذي قامت به مجموعة من الضباط الشبان. وهي زعيمة أحزاب (يسار الوسط).

3ـ وهناك أيضاً بنازير بوتو (36سنة) ابنة ذو الفقار علي بوتو (رئيس وزراء باكستان) الذي أطاح به انقلاب عسكري في العام 1977 ثم حكم عليه بالموت وأعدم فجر 4 نيسان ـ ابريل 1979.

والحلف المقدس بين السيدات الثلاث هو: الانتقام.. الانتقام للأب أو للزوج. وإظهار الصورة الحقيقية للشهيد الذي قضى دون أن يحظى بأقل معطيات حقوق الدفاع عن النفس أو عن الشرعية. إلا أن السيدة اللامعة بين الثلاث هي بنازير بوتو التي تمكنت من القضاء على كل ما وجه إليها من انتقادات عن تحررها عندما رضخت لإرادة والداتها وتزوجت وفق التقاليد الباكستانية من آصف زرداري. وقد حققت بعد زواجها الانتصار في الانتخابات الباكستانية لتصبح رئيسة للوزراء. ولها رأي بالزواج إذ تقول: «إن المرأة الكاملة هي المرأة المتزوجة».

7ـ جمال وإباحية

●ونقف الآن مع إمرأة تختلف عن الأخريات في الشكل وفي المضمون، في الدور وفي الآداء، في الفكر وفي القناعات. . .

هذه المرأة لا تحمل من مؤهلات سوى الجمال وسوى الإباحية، واستطاعت بذلك أن تدخل عقر الديمقراطية في إيطاليا، وأن تحتل مقعد النيابة مثل غيرها من رجال السياسة وأن تكون ممثلة عن الحزب الراديكالي.

●اسم هذه المرأة الحقيقي (ايلون ستامر). . والاسم الذي يعرفها بها الجميع هو (شيشيولينا) وبالاختصار (شيشيون).

●هذه المرأة التي اشتهرت بالإباحية والتعري عرفت كيف تغري الناس بانتخابها، واستطاعت أن تتحول من امرأة منحرفة إلى امرأة فاضلة.

وفي شهر حزيران 1988 أصبحت شيشيو نائبة وفازت بأكبر عدد من أصوات المقترعين، وعمدت فور دخولها إلى مجلس النواب إلى ممارسة دورها النيابي بكثير من النشاط والحركة، فانتخبت عضوة في لجنة الدفاع النيابية ووجهت العديد من الأسئلة والاستجوابات إلى الحكومة عن قضايا متنوعة.

●غير أن دخول شيشيو عالم النيابة لم يمنعها من الاستمرار في ممارسة الاستفادة من مظاهرها الجميلة ومعطياتها البارزة سواء بما ينشر لها من صور أو ما تدلي به من أحاديث.

●وعندما صدر الدليل السنوي للأعضاء في مجلس النواب

الإيطالي كرس لها صفحتين ونصف الصفحة (وهو رقم قياسي يخصص لنائب ليس رئيس تكتل نيابي). كما أن صندوق البريد الخاص بها في مجلس النواب ورقمه 607 يكتظ بالرسائل التي زادت في الثلاثة أشهر الأولى عن الستة آلاف رسالة، منها ما يهاجمها ومنها ما يؤيدها.

●وعندما تعرض لها عدد من النواب بسبب ماضيها وظروفها وآرائها وصورها وأفلامها وقفت شيشيو في مجلس النواب تقول:

«إني أطلب أن تحاكموني، ولكني أطلب أيضاً أن تحاكموا معي جميع أولئك النواب الذين تورطوا في عمليات الاحتيال والرشوة والفساد وخرق القوانين واستغلال المركز وغير ذلك من الأعمال غير الخلقية وهو ما يعتبر أكثر سواءاً من تصرفاتي..».

8ـ قرار الرحيل

في 15-10-1985 وضعت جاكلين زوجة الرسام العالمي بابلو بيكاسو حداً لحياتها وذلك كي لا يبقى الرسام العالمي وحيداً في مقبرته. وكانت تقول لصديقاتها أن تفضل «الموت على البقاء في هذه الحال». وقد ووريت أيضاً إلى جانبه في مقبرته الخالدة.

9ـ تشيانغ تشينغ وعقدة الأب

■«تشيانغ تشينغ» الزوجة الثانية للزعيم الصيني الراحل «ماوتسي تونغ» أحد مؤسسي الثورة الثقافية والحضارية في الصين الشعبية.

وكانت «تشينغ» قد أدلت في حديث أجراه معها الكاتب الأميركي «روكسان وتيك» والذي تحدثت فيه عن طفولتها. أدلت بوصف كامل وحي عن طفولتها التعيسة، حيث وصفت أباها بالرجل القاسي الذي كان يسب ويشتم لأتفه الأسباب وخصوصاً والدتها الضعيفة. وتذكر «تشينغ» أنه في أحد السهرات وبينما هم في حفلة عند أحد الجيران الأثرياء، استشاط أباها غضباً عندما مدحت والدتها بعض أثاث البيت حتى أنه حاول أن يضربها بمجراف «رفش» كان بيده لولا أن ابنته قفزت وحمت أمها بجسدها لتتلقى الضربة عنها ولتنقل إلى المستشفى للعلاج. ويخبرنا الكاتب الأميركي أن الندبة ومكان الجرح ما زال ظاهراً على السيدة «تشينغ» حتى أثناء تلك المقابلة التي أجريت عام 1972.

وقد حاولت «تشينغ» جاهدة أن تغير الكثير من العادات والتقاليد والمظاهر التي كانت سائدة في الصين، إلا أنها نجحت لفترة ومن ثم تم اعتقالها من قبل الحكم الجديد وهي تمكث الآن في أحد السجون الصينية هناك. . وتذكرنا طفولة السيدة «تشينغ» بطفولة كلا من ايفا بيرون ومارغريت تاتشر. فعندما كانت ايفا بيرون تخاطب الجماهير الهائجة في كاسا روسادا في بونس آيرس بالأرجنتين، كانت ايفا تلتهب حماساً للانتقام من والدها حيث طلبت بتهديم بيته، ذلك لأنها كانت طفولة تعيسة للغاية لأنها كانت

الطفلة غير الشـرعية لّلورد «خـوان دوريت» وابنة «جـوانا أبـارجوين» وهي الطاهية التي كانت تعمل عنـد اللورد في مزرعتـه. كانت ايفـا آنذاك توصف بالنحيلة لشدة شحوبها، فقـد عاشت طفـولة وحيـدة.

وخلال عقدين ـ كمـا نرى في مكـان غير هـذا بالكتـاب ـ من الزمن وصلت إلى السلطة وأصبحت رمزاً للمرأة الأرجنتينية القوية. وكذلك هو الحال بالنسبة لـ مارغريت تاتشر التي عاشت في أسرة من الطبقة الوسطى، الأم كانت مسالمة، هادئة وديعة، تنفذ كل مـا يطلبـه منها زوجها تاجر البقالة «الفريد روبيرتس» ويقول الكاتب البريطاني «بيني جونر» في كتابه الذي أصدره عن حيـاة مارغـريت تاتشـر أن والدتهـا كانت ضعيفة أمام الوالد القوي، كـانت ترتدي ثيابـاً داكنة وتسـوية شـرعية كـلاسيكية بسيـطة ولا تعترض على أي شيء. وهكـذا قـدر لمـارغريت أن تشهـد الصراع الخفي بين شخصيـة الأب القـويـة ذو النفـوذ والنشاط والسيـطرة، وشخصية الأم السلبيـة المستكينة، ممـا جعل مارغريت تختار شخصيـة المنتصر وهـو الأب ليكون لهـا قدوة بالقوة والجدية والإيجابية والاندفاع بـل والسيطرة. ورفضت الضعف والليـونة ولا غـرابة بعـد ذلـك أن تحكم بـريـطانيـا بيـد من حـديـد وخصوصاً أن والدها كـان يحمل في ذاتـه طموحـات كبيرة للوصـول إلى منصب سياسي ولكنه فشل وربما جاءت مرغريت لتثبت للجميع ولنفسها أولاً، أنها قـادرة على أن تحقق ما فشـل والدهـا في تحقيقه ولتنتقم لـلأقويـاء الذين لم يسـاعـدهم الحظ. وعلى الـرغم من أن طفولة مارغريت كانت تتسم بالإنعـزال والضعف في البدايـة، إلا أن تأثير الأب القوي يبدو واضحاً عندما أصبحت في الخامسة عشرة من عمرها. فتطورت مارغريت تدريجياً واعتلت المنصب تلو الآخر دون الرجوع خطوة إلى الوراء بل أنها ازدادت عنفواناً وقوة وقسوة مـع كل خطوة تخطوها إلى الأمام.. حتى أن الإنكليـز يصفونهـا الآن بأقسى

حـاكم مر على بـريطانيـا في العصور الحـديثة. وفي أحـد اللقاءات الصحفية التي أجرتها الكاتبة «ميريـام ستوبـارد» تكلمت تاتشـر كثيراً عن طفولتها وعن والدها بالتحديـد.. بل أنهـا بكت بحرقـة في هذا اللقـاء لأن أباهـا فشـل في الاحتفـاظ بعضـويتـه في مجلس البلديـة المحلي.. واستـرسلت تاتشـر بالحـديث عن أبيها عمـا تعلمت منه وإن كان يقول لها: اقرأي هذا.. لا تقرأي ذاك.. كوني كذلـك.. استمعي لهـذا الرأي.. لا تلقي اعتبـاراً لذاك الـرأي.. وهكـذا.. ويقول الكاتب «جونر» إنه لولا هـذا الأب لما وصلت تـاتشر إلى مـا وصلت إليه الآن. وكذلك هي حالة السيدة «انديرا غاندي» كما قرأنا في فصل سابق.

●وهكذا نرى أن «السيدة انديرا غانـدي» والسيدة «مـارغريت تاتشر» تجتمعـان في صفة واحـدة، وهي إدارة حكم بلادهـا مباشـرة وليس كزوجات زعمـاء هامين. طبعاً مع اختلاف شخصية كل منهما إلى حد كبير. وصحيح أن «انديرا غانـدي» و «تاتشـر» عاش طفـولة مليئة بالاحبـاطات ولكنـه كانت تختلف إن عن تلك الـطفولـة التي عاشتها كل من ايفا بيرون وتشيانغ تشينغ.

فوالد كل من «انديرا» و «مارغـريت» هو شخصيـة ناجحـة في مهنته.. وكما هو معروف فقد كان والد «انديرا» «نهرو» هو شخصية ناجحة في مهنته، وكما هو معروف فقد كان والد «انديرا» من أهم أبطال حرب التحرير القومية التي قادتهـا الهند للاستقلال عن بريطانيا.. كما أنه اعتلى منصب رئيس الوزراء لفترة من الـزمان هنـاك.. بينما والـد «مارغـريت تاتشـر» فقد كـان تاجـراً ناجحاً من تجار الطبقـة الوسـطى في بريـطانيا وعضـواً في المجلس البلدي المحلي في منطقته. وبالنسبة لحـالة «انـديرا» فيمكن القـول

أن هـذه المرأة الحكيمـة والحكيمة والقـوية قـد حرمت من طفـولتها حيث لم تعش كمـا الأطفال في سنهـا. فقـد كـان والـدهـا «نهـرو» يحـرص كل الحـرص على تعليمها وتثقيفهـا جيـداً وتعـريفهـا بكـل العلوم العامة والسياسية. وتقول انديرا عن تجربتها:

«لقد كنت أتألم كثيراً في البداية ـ حيث كانت المتطلبات أكبر من طـاقتي ومن عمري ـ كنت قليلة الـطعام، كثيـرة القلق والقراءة، حتى أنني في أحـد الأيام أخـذت دميتي على سـطح المنـزل وقمت بحرقها لعلمي أنني غير قادرة على اللعب كمـا يلعب الأطفال وكـان لا بد أن آخذ هذا القرار بنفسي. كنت وحيـدة كطفلة.. فـأبي دائم السفـر والتنقل وأمي كـانت بالـطبع مـلازمة لـه في رحلاتـه.. كنت أجمع الخادمات وألقي عليهن الخطابات، كان هناك شيء في داخلي يدفعني لذلك وخصوصاً أن الأحداث السياسية عاشت معنا في منزلنا في شخص أبي.. ومن غيـر الممكن تجاهـل ذلـك.. فـالسيـاسـة تـرعـرعت في بيتنـا وكبـرت معي. وعلى الـرغم من أن والـدي لم يضغط عليّ بشكـل أو بآخـر للدخول في المجـال السياسي إلا أنني كنت أوقن جيداً أنه يجب علي مواصلة مسيرته».

وقد استطاعت تلك السيدة رغم معاناة الوحدة في الطفـولة أن تثبت لعـالم الرجـال بل للعـالم بأسـره أنها كـانت جديـرة بالمنصب الذي وصلت إليه، وأنهـا استطاعت أن تحقق مـا لم يستطع العـديد من الرجال تحقيقه حتى اغتالها أحد متطرفي طائفة السيخ المتعصبـة في الهند في كانون الأول/ديسمبر 1984.

10ـ في ظلال أزواجهن

أما عن النساء اللواتي شاركن أزواجهن بالسلطة بشكل مباشر وقوي منهما «نانسي ريغان» و «ايميلدا ماركوس». وقد ولدت نانسي ريغان أو «آن فرانسيس روبنيزا» وهو اسمها الكامل، في 6 تموز/يوليو 1923 في ولاية مانهاتن الأميركية. وقد كان والدها «كينيث روبينز» بائع للسيارات المستعملة، وقد كان قاسياً لدرجة أنه لم يزر والدتها في المستشفى عند ولادتها لنانسي لأنه كان قد انفصل عنها. أما والدتها الممثلة «ايديث لاكيت» فقد أودعت نانسي عند أختها فيرجينيا جالبت في بيعشدا في «ماري لاند» لتربيتها عوضاً عنها حيث كانت دائمة التنقل بسبب مهنتها كممثلة. وهكذا عاشت نانسي مع خالتها ولم تكن ترَ أمها إلا في العطلات وبعد كل رحلة تقوم بها الأم.. ولم تشاهد أباها إلا وهي في الثامنة من العمر، وتصفه نانسي بأنه كان رجلاً قاسياً جداً حيث تذكر أنه في أحد الزيارات حبسها في الحمام وأغلق عليها الباب لأنها دافعت عن أمها عندما تزوجت والدتها من الدكتور «لويال ديفز» الجراح في مستشفى جامعة «نورث ويسترن»، وقد وصفته نانسي بأنه حازم ولكنه عادل، إلا أن تأثير تجربتها الأولى وقسوة والدها التي تركت في نفسها أكثر الأثر.

●أما عن حياة نانسي كزوجة للرئيس السابق للولايات المتحدة الأميركية «رونالد ريغان» فلا بد من الاعتراف هنا أن نانسي كان لها أكبر التأثير على شخصية الرئيس الأميركي الأسبق. فقد كانت نانسي تعده بالعرافين دائماً وذلك لمساعدته على اتخاذ قراراته وتوقيتها المناسب. كما أنها كانت وراء زوجها في اتخاذ خطوات

السلام حيث كان طموحها يتركز في أن يدخل اسم زوجها في كتاب تاريخ الرجال الذين يلعبون أدواراً هامة في إحلال السلام في العالم. وقد كانت نانسي وعرافيها وراء العديد من قرارات ريغان في حرب سباق التسلح والحرب العراقية ـ الإيرانية والحرب الأهلية في نيكاراغوا. وتعتقد نانسي أن زوجها قد حقق الكثير لدول العالم وسيواصل جهوده حتى بعد فترة رئاسته حيث ما زال عضواً في البيت الأبيض وحتى نهاية ك ٢ ـ يناير 1989 وقد علقت إحدى الصحف البريطانية على تحركات نانسي ودوافعها من وراء تحريض زوجها على تحقيق السلام. بأنه طموح شخصي للحصول عل جائزة «نوبل» للسلام.

وبسبب سيطرة نانسي على مدى ثمان سنوات فترة حكم ريغان ـ على العديد من القرارات الهامة والخاصة بمستقبل الولايات المتحدة، تذمر العديد من أعضاء إدارة ريغان منها بشكل واضح واتهموها بالتسلط والجهل وأنها لا تفهم بفلسفة السياسة من شيء. إلا أنها تبدو مصممة على دفع زوجها بالرغم من جهلها وعدم كفاءتها السياسية. فالطموح الشخصي للمرأة قد يكون أقوى من أي قرار سياسي أحياناً.

●أما ايميلدا ماركوس زوجة الدكتاتور والحاكم السابق للفيلبين (والتي يبلغ عدد سكانها 54 مليون نسمة)، فيبدو أن تجربتها تختلف عن الجميع. فوالدها (فيسينيت أوديسس رومالديز) أحد أفراد وأعضاء إحدى العوائل القومية البازة هناك.

كانت شخصية ضعيفة للغاية، وغير طموحة، ونجد أن ايميلدا اعتادت أن تتكلم عنه في بعد وكأنه رمزاً للنجاح، تخفي فشله دائماً، فطموحها بدأ من فشله، وعندما أصبحت زوجة للديكتاتور

«فيريدينـاند مـاركوس» جعلت من الفيليبين مسـرحاً لـلانتقام وكـأنها تنتقم من كل الشعب بسبب فقرها وحرمانها السابق.

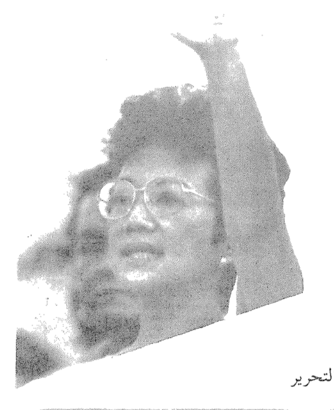
أما كيف بدأ فقرها وحرمانها ووالدها من الشخصيات العـريقة في المجتمع فالسبب يعود إلى المعاناة التي عاشتها والداتهـا بعد أن طردت من البيت من قبل أولاد الزوجة الأولى، فأخذت ابنتها اميلدا وعـاشت معها في «كـراج» حيث عاشت عيشـة فقر مـدقع وقـد ترك ذلـك في اميلدا عقداً نفسيـة وحقد عميقـة. وعندمـا قرر الـدكتاتـور السابق الاقتران باميلدا واختيارهـا لجمالهـا ولحسبها واسم والـدها ـ بـدأت تنافس الـدكتاتـور في دكتاتـوريته فـاستغلت منصبها كـزوجـة الـرئيس لتشبع رغبـاتها وحرمانها بسـرقة أمـوال الشعب. وحصصهـا كثيرة ومشهورة عن اقتنائها لـ 3000 زوج من الأحذية و 2000 قميص نوم.. ومجوهرات تقدر بالملايين وحسابات بـالبنوك رقم خيـالي.. إلى أن كانت محاكمة زوجها ومحاكمتها الأخيرة في نيويـورك ونفيها من البلاد بعد تولي السيدة «اكينو» السلطة في الفيلبين.

11ـ الأب دوما

■غالبية نساء الثمانينات وخاصة اللاتي ـ قبـل وبعد الـوصول إلى المناصب السياسية العليا، نجد أنهن قد عشن إلى حد ما طفولة محبطة تعيسة ووحيدة. والسبب دائماً هو الأب.. إما لضعفه أو لقوة شخصيته وجبروته.

12ـ رأي خاص

على كل حال فإن دور المرأة التقليدي بدأ بالانتهاء والتـراجع تدريجياً أمام تطور العصر والتكنولوجيا وحـاجة المجتمـع للمرأة إلى النـزول إلى ميادين العمـل المختلفة. . فغـدت النسـاء قـوة حقيقيـة تنافس الرجل اجتماعياً واقتصادياً بل وسيـاسياً. . فهنـاك العديـد من النسـاء اللاتي أثبتن وجـودهن في عالم الـرجال وفي عـالم السياسـة وتـربعن على كراسي السلطة فـأدرن البلاد بحكمـة أحيـانـاً، وبقـوة حقيقية أحياناً أخرى. وبذلك حطمن النظرية التقليدية السائـدة التي تقول أن الرجـال هم الأكثر ذكـاء ومكراً، وقسـوة. وإن المرأة ذلـك المخلوق النـاعم اللين الـذي لا حـول لـه ولا قـوة. . وقـد تختلف وجهات النظر حول مدة صحة هذه الفرضية وتختلف كذلك العوامل والأسباب التي تجعل من المرأة قائـداً فذاً يختلف عن صـورة المرأة التقليدية.



أوكينو . . . باسم الشعب تحكم

■انديرا مع والدها بطل حرب التحرير





■مارجريت. . المرأة الحديدية.



■ايفا براون. . رمزاً لمرأة الأرجنتينية القوية



■بنازير بوتو. . التي ثأرت ونجحت

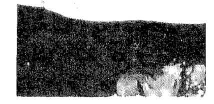


■اميلدا ماركوس. .
تجربتها تختلف عن الجميع



المرغريت تنتظران تصبح جدّة حديدية





كارولين: الأقل أناقة وأنوثة!



الملكة إليزابيت ومغامرة في أوستراليا



بربارة بالاسيوس تيدي : ملكة جمال الكون

13ـ عشيقات السياسيين القادة

■■احتلت قضية الحسناء الهندية باميلا بورديز، ملكة جمال الهند للعام 1982 وعلاقاتها مع رجال السياسة والصحافة وخارجها عناوين الصحف الغربية طيلة أسابيع من ربيع عام 1989. وباتت فضيحة «باميلا» بحجم فضائع بريطانية وأمريكية سابقة.. مثل فضيحة وزير الطاقة البريطاني سيسيل باركنسون وسكرتيرته ساراكيز التي أدت إلى استقالته من حكومة مارغريت تاتشر، وفضيحة كريستين كيلر مع وزير الدفاع السابق جون بروفيومو عام 1969. وتندرج في هذا الإطار أسماء كل من مارلين مونرو ودونا رايس وكوستارك وديمترالياني.. وأسماء أخرى لمعت في عالم الفضائح السياسية واشتهرت تحت عنوان «عشيقات السياسيين».

-1-

لعل كل ما تحتاجه الفضيحة السياسية من عناصر هي الجمال والمال والشهرة والعلاقات الحميمة والتجسس والهم الأمني الذي يتبعه. اكتمل مع الفضيحة التي هزت المجتمع البريطاني في شهر نيسان ـ ابريل 1989 وطالت رؤساء في حكومة مارغريت تاتشر، وأعضاء بارزين في مجلس العموم الحريص على سمعته النظيفة الراقية، وفي مكاتب رؤساء تحرير أعرق الصحف البريطانية وأكثرها شهرة وأوسعها انتشاراً.

والفضيحة التي بدأت صغيرة، بمجرد خبر عن علاقة فتاة هندية جميلة برئيس تحرير صحيفة «الصنداي تايمز» وظهورها في حفلة عامة مع أحد الوزراء المغمورين في الحكومة، أخذت تكبر مثل كرة الثلج، وصارت معروفة باسم «فضيحة باميلا» نسبة إلى بطلتها باميلا سينغ، ملكة جمال الهند سابقاً، التي تعرف الآن باسم باميلا بورديز نسبة إلى زواجها السابق من رجل الأعمال الفرنسي

هنري بورديز. وتبين أن باميلا لم تكن تقيم علاقات مع الشخصيات البريطانية البارزة التي استطاعت الوصول إليها وحسب، بل كانت تقيم كذلك علاقات أكثر حساسية من الناحية الأمنية مع الشخصيات التي يثير ذكر أسمائها الكثير من التساؤلات في أوساط أجهزة الأمن والمخابرات البريطانية، ومن بينها شخصيات بارزة في أحد أجهزة الأمن العربية. ولم تعد باميلا مجرد عاشقة متعددة القدرات والمواهب، بل تعدى الأمر ذلك، وأصبح البريطانيون يعيشون في ظل هاجس أمني كبير يدور حول ما إذا كانت الفتاة الهندية الجميلة استخدمت كأداة من قبل معارفها في الخارج، للتجسس على الأمن البريطاني واختراقه في أكثر المواقع حساسة.

* * *

البريطانيون الذين تستهويهم قصص الفضائح والمغامرات العاطفية لم يسمعوا بقصة في مثل هذا الحجم منذ قضية بروفيومو الشهيرة، في مطلع الستينات. وهي الفضيحة التي أسقطت وزير الدفاع آنذاك، ومن ورائه حكومة هارولد ماكميلان بكاملها، بسبب علاقة الوزير بالفتاة كريستين كيلر، التي كانت مرتبطة في الوقت ذاته بعلاقة حميمة بالملحق العسكري السوفيتي في سفارة بلاده في لندن. تلك العلاقة المزدوجة، التي استنتج منها الإنكليز في ذلك الوقت أن أسرار الدولة تنتقل إلى الأعداء بطريقة لا أخلاقية هي نفسها التي تلقي بظلها على «فضيحة باميلا» كما أصبح اسم الفضيحة الجديدة في الصحف الشعبية التي تعيش على هذا النوع من الأخبار. وتشاء الصدف أن تنفجر الفضيحة الجديدة في الوقت الذي أصبحت فيه فضيحة بروفيومو مادة لفيلم يعرض في بريطانيا ويلقى نجاحاً واسعاً، اسمه «الفضيحة»، حتى أن موزعي الفيلم استخدموا أخبار باميلا للدعاية للفيلم الذي يلعب دور الوزير العاشق فيه الممثل البريطاني المعروف جون هيرت، للدلالة على أن بريطانيا لا تزال قادرة على كشف فضيحة كل يوم.

وقصة الفتاة الهندية الجذابة والجميلة كان يمكن أن تبقى محلية لا تهم سوى صحف الإثارة، ودون مستوى الانتقال إلى الأخبار الرئيسية على شاشة التلفزيون وإلى أعمدة الصحف الرصينة وتعليقاتها في بريطانيا والعالم، لولا الكشف عن أن باميلا بورديز كانت ترتبط بعلاقات واسعة النطاق مع شخصيات تثير تساؤلات وتخفظات لدى أجهزة الأمن والمخابرات البريطانية، منها شخصيات بارزة في أحد أجهزة الأمن العربية، فضلاً عما قيل من أنها لعبت دوراً في الاتصالات التي مهدت لصفقة الأسلحة إلى «الكونترا» في نيكارغوا، على هامش فضيحة «ايران غيث». كل ذلك في الوقت الذي كانت باميلا تعمل باحثة في مكتب أحد النواب المحافظين، وتحمل بهذه الصفة بطاقة دخول خاصة إلى مجلس العموم تسمح لها بتجاوز حواجز التفتيش التي يخضع لها عادة الزوار العاديون لمبنى المجلس القائم على ضفة نهر التايمز. كذلك في الوقت نفسه الذي كانت تقيم فيه علاقات مع وزراء في الحكومة، ومع رؤساء تحرير أبرز الصحف البريطانية، وتدخل أبرز المجالس السياسية والاجتماعية من الباب الرئيسي إلى جانب كبار الشخصيات البريطانية وأكثرها ثراء وأهمية.

* * *

ويروي بعض الذين رافقوا نشاطات باميلا في تلك الفترة أنها غالباً ما كانت تستطيع حضور حفلات ومناسبات اجتماعية مغلقة لا يحضرها عادة إلا الخاصة من الناس. ففي ليلة إعلان نتائج الانتخابات الأميركية دعا السفير الأميركي إلى حفلة في نوفمبر - تشرين الثاني 1988، كانت بورديز هناك إلى جانب عدد محدود من كبار الدبلوماسيين في السفارة، وأبرز أعضاء الحكومة، وبعض كبار رجال الأعمال الأمريكيين الذين يعملون في بريطانيا. ولهذا فإن السؤال الذي لا يزال يحير الصحافة البريطانية هو:

كيف استطاعت هذه الفتاة التي كانت اسماً مجهولاً من آلاف

الأسمـاء الساعيـة إلى الشهرة الـوصول إلى مجتمعـات من النادر أن يدخلها الناس بمجرد الصدفة أو حسن الحظ؟

والحقيقة أن «الظهور» العلني الأول لبلاميـلا بورديـز كان إلى جانب وزير الرياضة البريـطاني كولن مـوينيهان في إحـدى الحفلات الراقصة التي يقيمها عادة المسؤولين الكبـار في حزب المحـافظين، وذلـك في شهر تشـرين الثاني ـ نـوفمبر 1988، يـومها نـزلت الفتـاة الجميلة، التي لم يكن اسمها قد ظهر بعد على مختلف الألسنـة من سيارة «الليموزين» الخاصة بالوزير وهي تمسك بيده. واعتقد الناس أن الفتاة خطيبة جديدة للوزير الشاب، قبل أن يتضح أنها واحدة من اللواتي يعملن لـ «الظهور» إلى جانب الشبان في منـاسبات من هـذا النـوع، مقابـل أجر يمكن أن يصـل كما كـانت الحال بـالنسبـة إلى بـاميلا إلى 500 جنيـه استرليني في المنـاسبـة الـواحـدة. وإذا كـان الظهور مع الوزيـر موينيهـان قد تحـول إلى فرصـة للحديث العـام، بسبب التغطية الصحفية الخاصة لتلك المناسبة على شاشة التلفزيون وفي الصحف، فإن علاقات باميـلا السابقـة توفـر لها هـذه الفرصـة بسبب الطابع الشخصي البعيد عن الأضواء الذي كانت تتصف به.

من هـذه العلاقـات مثـلاً، عـلاقتهـا بـرئيس تحـريـر كـل من صحيفتي «الصنـداي تايمـز» و «لاوبـز رفـر» وهمـا صحيفتـا الأحـد البارزتان في بريطانيا فقد بدأت العلاقة مع رئيس تحـرير «الصنـداي تايمز» اندرو نيل، من خلال صديق مشترك ـ كما يقول نيل ـ غير أن باميلا كانت تبحث على ما يبدو على أكثر من مجرد العلاقة، فانتهى ارتباطها بـ «نيل» إلى خلاف، حتى أنهـا قامت بتمـزيق ملابسـه في إحدى الحفلات العامة. وحاولت استغلال علاقتها بـه بانتقـالها إلى رئيس تحرير «لاوبزرفر» دونالد ترلفورد، الذي عرضت عليه أن تنشر قصتها مع نيل في صحيفته، وهي الصحيفـة المنافسـة لـ «الصنداي تايمز» على كسب القـراء كل أحـد. غير أن تـرلفورد رفض عـرضها «بدافع الزمالة الصحفية» كما قال.

* * *

يشير سجل اتصالات باميلا بورديز وعلاقاتها إلى أنها كانت تعرف كيف تختار الرجال في حياتها، لأنها كانت تدرك تماماً ماذا تريد. وينقل أحد المقربين والذين يعرفونها أنها منذ خروجها من الهند بعد انتخابها ملكة للجمال سنة 1982 (باميلا الآن في السابعة والعشرين) وضعت نصب عينيها أمرين:

- تحقيق الشهرة.
- والثراء السريع.

وقد استطاعت تحقيق الشهرة خلال أسبوع واحد.

أما الثراء فإنه ينتظرها في حال قامت بنشر مذكراتها في إحدى الصحف الشعبية. ويجري الحديث عن أنها تلقت عرضاً من إحدى هذه الصحف مقابل مبلغ نصف مليون جنيه استرليني. وهناك من يقول داخل المجتمع المخملي البريطاني، أن باميلا ابتعدت عن الأضواء واختفت من شقتها غير بعيد عن مبنى مجلس العموم، وذهبت إلى فرنسا، لتتابع من هناك صدى الزوبعة التي أثارتها داخل الوسط السياسي البريطاني، الذي كان راكداً بسبب أخبار ارتفاع نسبة التضخم وتوقعات الطقس الربيعي الممطر لعام 1989.

وسواء استطاعت باميلا تحقيق أحلامها العريضة من خلال علاقاتها البريطانية الراقية أم لا، فإن هم المجتمع السياسي البريطاني يتركز على الجانب الأمني من هذه القضية. فقد ناقش مجلس العموم الطريقة التي استطاعت بها هذه الفتاة العاشقة تجاوز إجراءات التدقيق التي تفرض عادة على الذين يدخلون قاعات البرلمان في «وستمنستر»، والمسألة بالنسبة إلى النواب البريطانيين وأعضاء الحكومة تتلخص في أنه إذا استطاعت بورديز اختراق الحواجز الإمنية بواسطة علاقاتها الشخصية فإن أي فتاة أخرى ستكون قادرة على إلحاق الضرر المماثل بالأمن البريطاني، خصوصاً إذا كانت تتمتع بالقدر نفسه من الجمال والذكاء واختيار الهدف. وإذا صح ما قيل عن علاقات باميلا بالشخصيات الأمنية

التي تثير قلق الإنكليز ومخاوفهم، فإن حجم الضرر الذي أحدثته الفتاة الهندية لا بد أن يكون كبيراً. ومن هنا فإن قضية بورديز أو فضيحتها أصبحت الآن ملفاً بين أيدي رجال المخابرات (إم. إي. 5) للتحقيق في ما انتقل من أسرار الدولة عبر فن العشق السياسي، الذي لا تستطيع بريطانيا ولا صحافتها أن تعيش بدونه.

15ـ فضائح . . . فضائح

هناك تشابه بين فضيحتي كريستين كيلر وباميلا بورديز، فكلاهما حسناء تبحث عن موقع في أوساط الطبقة المخملية في لندن وخاطرت باختراق عالم المؤسسة البريطانية الحاكمة. وبينما كان لقضية بروفوميو عواقب مثيرة على السياسة البريطانية فإن قضية باميلا لم تسبب حتى الآن سوى الإحراج. وكانت تبلغ 21 عاماً عندما جاءت إلى لندن سعياً وراء الشهرة والثروة. والتقت من خلال طبيب خاص بالطبقة الغنية وزير الحرب «جون بروفيومو» وبنت معه علاقة في الوقت الذي كانت تختفظ فيه بعلاقة أخرى مع الملحق العسكري في السفارة السوفيتية في لندن. ورغم الإصرار على النفي في البداية، اضطر بروفيومو في وقت لاحق إلى الاعتراف بأنه كذب على مجلس العموم في موضوع نشاطاته واستقال من منصبه. ووضعت كلير عدة كتب حول الموضوع وعملت مستشارة لفيلم «الفضيحة» الذي عرض ربيع 1989 وسط ضجة. ومع ذلك لا يزال العديد من الأسئلة مطروحاً في هذه القضية وخاصة حول الدور الذي لعبته بعض الأجهزة البريطانية. وما تزال الآراء منقسمة بشأن الدوافع التي حركت كيلر. ولا يزال السؤال الثاني مطروحاً:

هل كانت مجرد فتاة ساذجة ضاقت بالاهتمام الذي كانت تحظى به فوجدت نفسها في ظروف خارجة عن إرادتها، أم كان لها دور كلفت به من قبل أحد الأجهزة؟

وهـذا الغموض يحيط أيضـاً بـ باميـلا. فقـد ظهـرت كـامـرأة طموحة وشديدة التصميم على الشهرة والارتباط بالأوساط الغنية ذات النفوذ ووظفت ما تكسبه من عملها الخاص على هذا الصعيـد. ومن نـاحية أخـرى تمت خطبتهـا إلى أحد سمـاسرة البـورصـة وواصلت «نشاطاتها» إلى أن ظهرت الفضيحة أخيراً.

وكانت باميلا بورديز قد ولـدت في الهند من أسـرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى. وتوفي والدها عندمـا كانت رضيعـة. لكن والدتهـا أرسلتهـا إلى أفضل المـدارس الخاصـة في الهند. والتقـارير بشـأن حياتها المبكرة متضاربة. فزميلاتها السـابقات في المـدرسة يصنفهـا بأنها كانت خجولة ومنطويـة على نفسها. وبعضهن يقلن أنهـا كانت بارعة في التمويه. وتقول بعض التقارير أنها بعد الانتهاء من مـرحلة الدراسة، تزوجت فترة قصيرة وأنها انتقلت إلى بومباي (مركز صناعة السينما في الهند) وعملت عارضة أزياء وجاءتها الفرصة عندما فازت بلقب ملكة جمال الهند عام 1982 وسـافرت إلى الـولايات المتحـدة للمشاركة في التصفيات النهائيـة لملكة جمـال العالم. وبينمـا كانت في نيويورك ظهـرت علامـات ربطتهـا ببعض الميسورين، ومن غيـر المعروف السبب الذي جعلها تقرر التـوجه إلى أوروبـا. وفي 1984 تـزوجت من فرنسي هـو «دومينيك بـورديز» وتـردد أن غـرضهـا كـان الحصـول على جواز سفـر فرنسي يمكنهـا من التنقل بحـرية أكبـر. وبعد زواجها بفترة قصيرة جاءت إلى لندن بمفردها وبدأ ظهورها في المجتمع المخملي.

وفي وقت مبكر من عام 1989 خـطبت بورديـز إلى سمسار في سوق البورصة. والغريب في الأمـر أنه لم يفسـخ خطبتـه حتى وقت الفضيحة، وتركها تمارس مهنتها. فعندما اتصل بهـا صحافي يعمـل

في صحيفـة «نيوز أوف ذي وورلـد» البـريـطانيـة متخفيـاً تحت اسم رجل أعمال ثري من هونغ كونغ كانت في مـا يبدو ومستعـدة لتقديم خدماتهـا. ويذكـر أنها اختفت عن الأنـظار وزاد مستقبلها غمـوضاً، فيما كريستين كيلر استعادت شهرتها بعد ظهور الفضيحة بعدما كانت قـد أدمنت المخدرات وفشلت في زواجهـا أكثـر من مـرة، لأنهـا لم تكن قادرة على نسيان القضية التي سلطت عليها أضواء الشهرة قبـل 25 عـاماً، وهكـذا الحال مـع ساراكيـز سكرتيـرة الوزيـر البريـطاني سيسيـل باركنسـون وعشيقته السـابقة. وهـو كان سيخلف مـارغريت تاتشر في زعـامة حـزب المحافـظين إلى أن انكشفت علاقتـه بكيز. فهي الأخرى ترفض إسـدال الستار. ستـار النسيان على قضيتهـا. وبالرغم من استعادة باركنسون منصبه (بعد استقالته) ما تـزال القضية تلقي بـظلالها عليـه. أما الحسنـاء التي كـانت السبب في استقـالـة جيفري ارشر من منصبه كنائب رئيس حزب المحافـظين فقد اختفت عن الأنـظار واستطاع هـو تحصيـل تعـويض مـالي ضخم بقـرار من المحكمـة حول ما نشر عن قضيته وكتب رواية ناجحة حول قصته معها.

16ـ فضيحة يونانية

كما في بريطانية. كذلك وصلت موجة الفضـائح الشخصيـة ـ السياسية إلى اليـونان، وطـالت أعلى الهرم في السيـاسة اليـونانيـة، رئيس الوزراء اندرياس باباندريو.

ففي تموز ـ يوليو 1988، وبعد العملية الجراحيـة التي أجريت لرئيس وزراء اليونان في لندن أعلن باباندريو (70 سنـة) عن علاقتـه بعشيقته مضيفة الطيران دميتريا ليانى (34 سنة).

ومنذ ذلك الوقت لم يخف باباندريو هذه العلاقة، التي هزت المجتمع اليوناني وباتت تهدد مستقبل حكومته.

والمعروف أن باباندريو يعيش حالياً مع عشيقته ليانى، فيما تحاول زوجته مارغريت الأميركية الأصل رفع دعوى قضائية ضده مطالبة بالطلاق.

17ـ فضائح أميركية

خلال مناقشة الكونغرس الأميركي (1989) ترشيح السيناتور السابق جون تاور وزيراً للدفاع، والجدل حول سلوكه الأخلاقي (علاقات مع النساء، وادمان. . . الخ) قال أحد الأعضاء.

● لو كشفت فضائح كل أعضاء الكونغرس لما بقي عضو فيه.

وقال «ادوين ديلاتري» خبير الأخلاق التطبيقية في معهد «امريكان انتربرايز» في واشنطن. ومؤلف كتاب «التربية وثقة المواطنين» الفضائح الأخلاقية ذات الصلة بالعمل السياسي «ليست جديدة في تاريخ الولايات المتحدة. وربما الجديد أن التغطية الإعلامية لها زادت وتضاعفت» إذ لم يتحدث الإعلام الأميركي إلا مؤخراً عن تفاصيل العلاقات الحميمية فرانكلين روزفلت (1936-1945) وأمور أخرى عن حياته الخاصة، مثل كونه مقعداً، يتحرك على كرسي بعجلات خلال سنوات حياته الأخيرة، كما لم يتحدث الإعلام الأميركي إلا مؤخراً عن علاقات الرئيس الجنرال دوايت ايزنهاور (عشيقته كانت جندية في القوات المسلحة). والرئيس جون كينيدي (واحدة من عشيقاته جوديت اكستر، ألفت

مؤخراً كتاباً عن علاقاتها معه ومع الممثل الفرنسي فرانك سيناترا ومع بعض قادة منظمة المافيا الإرهابية).

لكن فضيحة «ووترغيت» التي أدت إلى استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون 1974فتحت صفحة جديدة في كتابعة الصحافيين لفضائح السياسيين وعاد بعض الصحافيين والكتاب إلى فضائح الماضي يحققون في تفاصيلها، ويؤلفون الكتب عنها ومنها الكتاب الذي صدر قبل عدة شهور بعنوان «مزايا السيناتور» عن فضيحة السيناتور ادوارد كينيدي، بقلم ليودامور الذي كان يعمل في صحيفة «كيب كودنيوز» عندما وقع الحادث. ويقول دامور في كتابه:

«فيحوالي الساعة الواحدة صباح يوم السبت 18 تموز - يوليو 1969، انحرفت السيارة عن جسر خشبي في جزيرة جاباكويديك بالقرب من كيب كود في ولاية ماساشوستش، وغرقت السيارة، وخرج منها رجل متعب بدا أنه ثمل. لكن الفتاة التي كانت معه لم تستطع الخروج، فانتشلت جثتها من داخل السيارة. والرجل هو السيناتوز ادوارد كينيدي، وصديقته كانت ماري كوبكني. ومنذ ذلك الوقت، وخلال 20 سنة شغلت الفضيحة الأذهان:

- أي كانت زوجته؟
- ولماذا لم يبلغ الحادث إلى الشرطة إلا في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي؟.
- ولماذا عقد اجتماع طارىء لكبار آل كينيدي؟.
- وهل اشتركوا في مؤامرة لتغطية الحادث أو الحد من آثاره عليهم، وعلى المستقبل السياسي للسيناتور الشاب؟.

بعض هذه الأسئلة لا تزال تنتظر إجابات، لكن هناك شيئاً واحداً مؤكداً:

«إن الفضيحة أدت إلى إنهاء كل طموح سياسي لادوارد كينيدي. فقد أعلن أكثر من مرة ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ووجد تأييداً لا يستهان به بسبب شهرته، وشهرة آل كينيدي. لكن ما أن يبدأ أعداؤه ومعارضوه في الحديث عن فضيحة جاباكويديك، حتى يتول اتجاه الرأي العام ضده، فينسحب من المعركة».

وهناك سيناتور آخر حطمت علاقاته النسائية طموحه في أن يصبح رئيساً لأميركا.. إنه غاري هارت، فقد التقطت له صور مع عشيقته دونارايس، على يخت «مونكي بيزنيس» وتابعهما صحافيون ومصورون من جريدة «ميامي هيرالد» عندما عادا من رحلة اليخت، في ولاية فلوريدا إلى شقة السيناتور في واشنطن، بالقرب من مبنى الكونغرس (زوجته كانت في ولاية كولورادو في منزل الأسرة).

ومنذ فضيحة هارت أصبحت متابعة فضائح السياسيين فناً قائماً بحد ذاته في الصحافة الأمريكية، فبعد هارت جاء دور ريتشارد سلستي، حاكم ولاية أوهايو. ونشرت جريدة «بلير ديلر» التي تصدر في كليفلاند، في الولاية ذاتها أنه كانت له ثلاث علاقات حميمية:

- الأولى قبل أكثر من عشر سنوات مع زوجة أحد أصدقائه.
- والثانية قبل خمس سنوات مع زوجة أحد مساعديه في كتب حاكم الولاية.
- والثالثة مع إحدى سكرتيراته في مكتبه.

وقالت الجريدة أن العاملات في مكتب الحاكم عرفوا الفضيحة الثالثة وعندما انتشر حديثهم عنها، استقالت السكرتيرة، لكن الحاكم بدا وكأنه قد فوجىء وأسف للاستقالة فأقام حفل وداع للسكرتيرة. وعندما سئل رئيس تحرير الجريدة:

●لماذا أسكتم عن هذه الأحداث كل هذه السنوات؟.

أجاب:

●●لأن الحاكم أعلن أنه سيرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. وإذا كانت علاقات السيناتور هارت قد حطمت ترشيحه لهذا المنصب فليس من العدل أن نسكت على فضائح الحاكم.

ولم ينف الحاكم الفضيحة، لكنه قال أن لا شأن للصحافيين بحياته الخاصة. ووقفت زوجته إلى جانبه، ودافعت عنه، لكنها لم تنف أن زوجها كانت له عشيقات. وقالت:

«ليس صعباً علي أن أغفر الأخطاء».

لكن زوجها لم يترشح لرئاسة الجمهورية.

وعندما أعلن القس جيسي جاكسون أنه سيترشح للمنصب في سنة 1981، وجد نصيبه من الإشاعات، أو البحث عن الحقائق. وسأله الصحافيون أكثر من مرة:

●هل تعاني مشكلة غاري هارت؟

وضحك أكثر من مرة لكنه عندما ضغطوا عليه قال في حدة:

●لن أجيبكم عن أسئلتكم. فهذا بيني وبين ضميري وأسرتي.

وأضاف: ●الحديث عن حياة السياسي الخاصة مسموح فقط إذا أثرت على الأمن القومي، أو المصالح القومية.

أما زوجته فقالت: «أنا أربي أطفالي، ولا أتدخل في ما لا يعنيني».

وفي وقت لاحق أجري استفتاء صحفي حو العلاقة بين العمل

السيـاسي والفضائح الأخلاقيـة، فقـال معـظم الأميـركيين مـا قـالـه جاكسون:

«عنـدما تتعـرض المصلحة القـوميـة للخـطر أو الأذى، بسبب علاقات خاصة لسيـاسي أو مسؤول فإن هـذا هو الحـد الفاصـل بين العام والخاص».

بورديز مع رئيس تحرير «الصنداي تايمز» اندرونيل

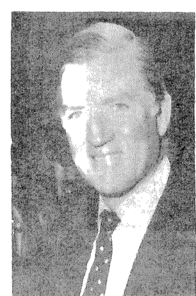


باباندريو مع عشيقته لياني





ساراكيز عشيقة باركنسون



الوزير باركنسون وفضيحة حزب المحافظين



جاري هارت وعشيقته دونا رايس

جون كينيدي
وقصته مع
مارلين مونرو

باميلا بعد اختيارها ملكة جمال الهند



●السكرتيرات الجاسوسات

مسلسل الجواسيس في ألمانيا الغربية مثير جداً وخاصة بما تقوم به المرأة، وكل يوم تطالعك الأخبار بتورط إحدى السكرتيرات الجاسوسات في عمليات التجسس على الأسرار السياسية والعسكرية. ليس السكرتيرات الفاتنات وحسب بل وللرجال دور فاعل أيضاً. فهذا غونترغيوم، الجاسوس رقم 1 الذي كان يعمل مساعداً للمستشار الألماني الأسبق فيلي برانت، وأدى افتضاح أمره لاستقالة برانت في 6 أيار مايو سنة 1974. والسكرتيرة الفاتنة الجاسوسة رقم 2 داغمار شيفر التي تم القبض عليها في أيار ـ مايو 1977. . واتضح أنها كانت غارقة حتى أذنيها في حب أحد روميوهات مخابرات ألمانيا الشرقية.

هكذا كان جيوم هو جاسوس المستشار رقم 1، وبعد بثلاث سنوات جاءت داغمار شيفر لتمثل الموقع رقم 2. . ومن ثم جاءت هيرتا استريد فيلز لتصبح جاسوسة المستشارية رقم 3. . وتحتل رقم 15 في سلسلة الجاسوسات الفاتنات.

في أول السلسلة نجد إيريكا شنايدر، التي كانت تعمل بمكتب فرانز جوزيف شتراوس عندما كان وزيراً للدفاع سنة 1958، واتضح أنها كانت تنقل أسرار وزارة الدفاع إلى برلين الشرقية، فألقي القبض عليها في حزيران ـ يونيو 1958، وأمضت في السجن عامين.

●وفي تشرين أول ـ اكتوبر 1960 ألقوا القبض على روزالي كونز السكرتيرة بوزارة الدفاع. والتي كانت تعمل بالوزارة منذ سنة

1956، وتأكدوا أثناء محاكمتها سنة 1961 أنها عضوة في شبكة تجسس فصدر الحكم بسجنها أربع سنوات.

●وفي آذار ـ مارس 1962 ألقوا القبض على ليزلوته كروسبه السكرتيرة بوزارة الخارجية، واتضح أنها تعمل لحساب ألمانيا الشرقية منذ سنة 1950.

●وفي تشرين أول ـ اكتوبر 1967 ألقوا القبض على ليونوره زوترين بعد أن اشتبهوا في أنها عميلة للمخابرات الروسية إلا أنها انتحرت في الزنزانة.

●وفي شباط ـ فبراير 1970 ألقوا القبض على ايرين شولتز سكرتيرة وزير البحث العلمي، واتضح أنها كانت تنقل الأسرار العلمية للاتحاد السوفييتي. وأنها تعمل لحساب موسكو منذ سنة 1957. ولكن تم تبادلها في أيلول سبتمبر سنة 1972، وقبل محاكمتها، بعدد من الجواسيس الألمان في الشرق.

●وفي نيسان ابريل 1974 ألقوا القبض على كريستل جيوم، زوجة غونتر جيوم مساعد المستشار الألماني الأسبق فيلي برانت بعد أن اتضح أنها كانت تشاركه التجسس. وصدر ضدها حكم بالسجن لمدة 8 سنوات. ولكن تمت مقايضتها في آذار ـ مارس 1981 وقبل انتهاء مدة العقوبة بعدد من جواسيس الغرب في الشرق.

●وفي أيار ـ مايو 1976 ألقوا القبض على ريناتة لوتز السكرتيرة بوزارة الدفاع، ومعها كريستينا جيرستنز، واتضح أنها كانت تعملان لحساب المخابرات الألمانية الشرقية، وصدر الحكم بسجن ريناتة، 6 سنوات وكريستينا 7 سنوات.

●وفي أيار ـ مايو 1977ألقوا القبض على داغمار شيفر السكرتيرة بالمستشارية، وأمضت في السجن أربع سنوات وثلاثة أشهر بسبب تجسسها لحساب أحد روميوهات مخابرات ألمانيا الشرقية.

●وفي شباط ـ فبراير 1979 ألقوا القبض على انغريد جرابه السكرتيرة بالوفد الألماني الدائم لدى حلف الإطلنطي في بروكسل، وأمضت في السجن 4 سنوات.

* * *

وفي الثمانينات بدأ الإيقاع يتسم بالسرعة. فهربت سونيا لونابورغ سكرتيرة وزير الاقتصاد بانجمان. وبعدها بيومين اختفت أورسولا ريشتر سكرتيرة رئيس اتحاد المشئين. وبعدها اختفت هيرتا فيلز السكرتيرة بالمستشارية، وبعثت بخطاب استقالتها من ألمانيا الشرقية.

كلهن من الجنس الناعم، كانت الأسرار كلها تنساب بين أيديهن.. وكن يختمن الأوراق الهامة بخاتم «سري جداً» أو «سري للغاية» بينما تكون الواحدة منهن قد أبلغت الشرق فعلاً بكل التفاصيل.. فالختم من اختصاص السكرتيرة أما المسؤول الكبير فكان يكتفي بأن يقول لها:

«من فضلك هذا سري جداً»

ثم يطمئن.

وانتشار ظاهرة التجسس النسائي دفعت بعض الساسة الألمان للتفكير جدياً في الاستعانة برجال غلاظ يدقون على الآلة الكاتبة ويعملون في بطون الأوراق، ويخافون اقتحام المهالك ولا يقعون في حب أحد ولا يقع أحد في حبهم.

ولذلك فقد نشهد قريباً عصر اطمئنان الزوجات على الأزواج طوال ساعات العمل. واختفاء الأصوات الناعمة التي ترد عليك عندما تطلب موعداً من الرئيس المباشر لصاحبة الصوت الناعم.

المهم. أن هروب هيرتا أصاب الحكومة الألمانية كلها برعب، لأنها سكرتيرة في المستشارية ولأنها كانت تطلع بحكم عملها على محاضر مجلس الوزراء.. والأدهى من ذلك كله أنها

كانت تطلع على كافة المراسلات المتعلقة بحرب الكواكب.. بما يعني أن أسرار الأمريكان قد نقلت للسوفييت عن طريق الألمان.. وبالتالي فإذا كتم الأمريكان أسرارهم عن الألمان.. فلا ينبغي على الألمان أن يغضبوا. فإذا احتج الألمان على عدم اشراكهم في أسرار حرب الكواكب فإن حروب «هيرتا» ومن قبلها يتوجه مدير إدارة مكافحة التجسس سيكون العصا التي يلوح بها الأمريكان لإسكاتهم.

* * *

والآن.. ما هي حكاية هيرتا؟؟.

الحكاية بدأت باتصال تليفوني بين فريتز فليزار سكرتير عام مبرة فريدريك نادمان التابعة للحزب الحر، وصديقة فولفغانج شوبله أمين عام المستشارية.

●قال فليزار: لقد اختفى موظف لدينا اسمه هيربرت فيلز.. كان في اسبانيا ولم يعد.. وهو منقطع عن العمل منذ 12 يوماً.

وهنا أصيب فولفغانج شوبله بفزع شديد أفقده صوابه.. وقال:

●يا إلهي.. يا إلهي.. إن زوجته تعمل لدينا.. إنها سكرتيرة بقسم المعلومات.

وتم في الحال إبلاغ المخابرات. وبات من المؤكد أن هيرتا وزوجها هيربرت.. تماماً كما كان للمستشار الأسبق برانت جاسوس.. ولم يعد أحد يدري هل ستكون النتيجة واحدة ويستقيل كول كما استقال برانت من قبل؟.

الواقع أن استقالة كول لم تكن واردة لأن هيرتا لم تكن من مساعديه المباشرين كما كان الحال بالنسبة لجيوم وبرانت. علاوة على أن وزن هيرتا في المستشارية لم يكن يقارن بوزن جيوم بأي حال من الأحوال.

المهم أنه بالعودة لملفات هيربرت وزوجته هيرتا تكشفت سلسلة من الحقائق التي تؤكد أن أجهزة الأمن الألمانية كانت في غيبوبة.

فالزوج مهاجر من ألمانيا الشرقية. . وعندما جاء إلى الغرب سنة 1961 اعترف اثناء التحقيق معه بأنه وقع في أسر الروس بعد الحرب العالمية الثانية. وأنهم ألقوا به في معسكر اعتقال وبعدها عاش في ألمانيا الشرقية دون أن يعرف عنه أنه كان عضواً في فرقة العاصفة النازية.

ومن المدهش أن هذا الاعتراف لم يلفت نظر المخابرات الألمانية إلى احتمال أن يكون هيربرت قد وقع في تجنيده في جهاز المخابرات الروسي وأنه جاء إلى ألمانيا الغربية ليس حباً في الرأسمالية وإنما للتجسس.

لم يلعب الفأر في عب المخابرات، وتركت هيربرت يعمل ويحب ويتزوج دون أن تضعه تحت عيونها ولو من باب الاحتياط.

والأغرب من أنه لم يلفت نظر المخابرات الغربية أن هيربرت درس الصحافة بجامعة كارل ماركس في لايبزغ. وكان ينبغي عليها أن تعرف من كل خبراتها السابقة أن كلية كارل ماركس هي مركز التقاط الجواسيس وأن أساتذة هذا القسم من عتاولة رجال المخابرات الذين يختارون الطلبة الذين لهم مواصفات الجاسوس الناجح، وعند تخرجهم يلتحقون بمعهد التجسس التابع للمخابرات

الشرقية حيث تصقل مواهب التجسس ودقة الملاحظة والقدرة على تخزين المعلومات ونقلها. . . الخ.

كل ذلك لم يلفت نظر مخابرات بون. . وبدأ هيربرت يبحث عن زوجة مناسبة. . فتزوج سنة 1974 من هيرتا. . السكرتيرة بالمستشارية.

كل ذلك لم يلفت نظر مخابرات بون أيضاً. . بل أنه عندما بدأت المخابرات تجري تحرياتها عن سكرتيرات المواقع الهامة سنة 1983 وبحثت حالة هيرتا لم يلفت نظرها أن الزوج هارب من الشرق. وأن صورته في الملفات هي صورة روميو. . فهو وسيم الطلعة. . يمارس رياضة الغطس. . ويشغل منصب نائب رئيس اتحاد الغطس في بون. . ويمضي إجازته السنوية في (سيناء ـ مصر) بينما صورة زوجته تشير إلى أنها تحت مستوى الجمال. . وهي ليست جولييت. . ولم يفكر أحد في سر زواج الوسيم من تلك (غير الوسيمة).

وإن هذا الملف لفت نظر مدير المخابرات السابق هيلينبرش ولكن أحد مساعديه قال له أنهما متزوجان منذ 9 سنوات أي لا تشغل بالك بالأمر. . فلم يشغل باله.

كان الزوج هيربرت يعمل بمبرة فريدريك نادمان التابعة للحزب الحر وعلم من صديق له يعمل بوزارة الخارجية أن المخابرات تراقب زوجته، وأنه بعد هروب تيدجه مدير قسم مكافحة التجسس يضعون بعض السكرتيرات تحت المراقبة ولذلك فقد قرر القيام بإجازته والسفر مع زوجته إلى مدريد ومنها انطلقا إلى ألمانيا الشرقية.

وقال الزوج:

إننا لم نكن نعمل بالتجسس.. وإنما أردنا تجنب مضايقات المراقبة والتحريات والتحقيقات فآثرنا السلامة وهدوء البال ولجأنا إلى الشرق.

* * *

ولم تكن قصة هروب هيرتا وهيربرت هي القصة الوحيدة التي تكشف قصور جهاز المخابرات الألماني. فمن بينها مثلاً أنه ليس لألمانيا الغربية جاسوس واحد داخل الكرملن.. وليس لها أي عميل من بين رجال الجنرال ياروزلسكي في بولندة.. والقائمة طويلة نسبياً علماً بأن ميزانية هذا الجهاز تصل إلى 800 مليون مارك سنوياً ينفق جزء منها على الأبحاث العلمية لتطوير قسم التجسس.. وتزويد الجهاز بأحدث ما وصل إليه العلم في هذا المجال.

ويعمل في جهاز المخابرات الألماني في الخارج الآن نحو 6500 عميل وهو رقم يزيد كثيراً عن عدد الدبلوماسيين الألمان في الخارج.. يزودون أجهزة المعلومات بكل كبيرة وصغيرة على وجه الكرة الأرضية وهم في تنافس يومي مع المخابرات الأمريكية والفرنسية والإسرائيلية والبريطانية والروسية وهي أجهزة المخابرات الرئيسية في العالم اليوم.

والأمر لا يخلو هنا من بعض المواقف التي تعكس الفجوة الهائلة بين ما هو متوقع.. وبين ما هو حادث بالفعل.. ومنها مثلاً تقريراً سرياً جاء من موسكو يؤكد أن القيادة السوفييتية قررت إجراء تعديل طفيف في موقفها إزاء نشر الصواريخ السوفييتية من طراز s.s.20.. وعندما حولت المخابرات هذه المعلومة لوزارة الخارجية اكتشفت أن هذا الخبر منشور في صحيفتي برافدا وأوزفستيا قبلها بأسبوع.

ومنها مثلاً:

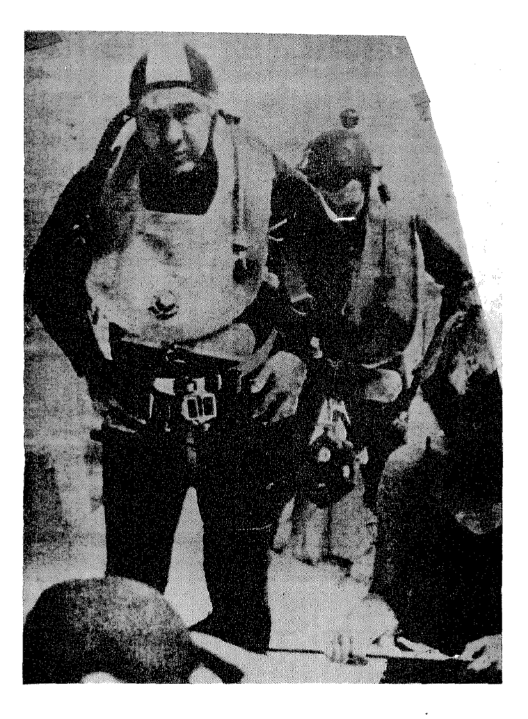
- إن الدخول السوفييتي لأفغانستان كان مفاجأة للمخابرات الألمانية.
- إن حرب تشرين ـ اكتوبر 1973 كانت مفاجئة للمخابرات وإن معلومات وزارة الخارجية كانت أكثر دقة وتحديداً بناء على تقرير بعث به السفير الألماني في القاهرة بعد لقاء له مع أنور السادات قبل الحرب بعدة أيام قال فيه السادات للسفير أن الغرب لم يساعدني في التوصل إلى حل سلمي ولم يعد أمامي سوى الحرب.
- لم يكن غورباتشوف من الأسماء التي قدمتها المخابرات كزعيم متوقع في الكرملن.

وعشرات الأمثلة.. تقابلها في نفس الوقت قصص نجاح مذهلة وعلى حد قول أحد قيادات المخابرات الألمانية:

«ينبغي ألا ننسى أننا لسنا دولة عظمى إننا دولة متوسطة الحجم ويجب على مخابراتنا أن تتحرك في هذا النطاق».



●الجاسوسة سونيا لونابرج مع رئيسها السابق بانجمان وزير الاقتصاد الألماني. صورة قبل الهروب.



●الجاسوس هيربرت فيلز بملابس الغطس وفي طرف الصورة تظهر زوجته هيرتـا . . جاسوسة المستشارية .



●الجاسوسة الجميلة أنجريد جرابة



●مارجريت هوكة السكرتيرة بمكتب رئيس الجمهورية



●داجمان شيفر
جاسوسة المستشارية



●روزال كوبن
جاسوسة وزارة الدفاع



●ريناتة لونز
جاسوسة وزارة الدفاع



●كريستن جيوم
زوجة الجاسوس جونتر جيوم

المخبأ السري لسيدة فلوريدا

فراو جيفن

كان شاطىء فلوريدا الجميل أثناء الحرب العالمية الثانية ثغرة خطرة في دفاع الولايات المتحدة الأميركية.

فإن الغواصات الألمانية لم تنجح في إلقاء وحدات من الكوماندوس على شواطىء شبه الجزيرة فقط، بل كانت وهي تقوم بدورياتها في البحر الكاريبي تفرق السفن الأميركية واحدة تلو الأخرى. ولقد حدث أن أغرقت بعض سفن الشحن على مسافة أميال من الشاطىء الأميركي.

إن جهاز مكافحة الجاسوسية وسلاح البحرية معاً قد ألفيا نفسيهما عاجزين تماماً، فلقد كانت الطائرات تطير فوق البحر، باحثة عن وجود الغواصات المعادية، وتجيء تقاريرها اليومية جميعاً سالبة.

ولقد اقتربت الهجمات من الأرض الأميركية بشكل جعل هذه الجرأة موضع استنتاج.

فإن أسطولاً حقيقياً من الغواصات الألمانية، وفي مثل هذه الحال ينبغي أن يجري تموينه بالمازوت على شاطىء فلوريدا بالذات. وهذا يقتضي وجود جهاز منظم يعمل لمصلحة الألمان.

وابتدأ تحقيق على مستوى كبير، وقام رجال الـ (ف بي أي)

بتمشيط البارات والمطاعم والمقاهي وعلب الليل بدقة شديدة. وأخذوا في سؤال واستدراج أصحاب المحلات والزبائن على السواء. آملين أن تنم عن أحدهم ذات يوم بادرة غير حذرة، تضع رجال مكافحة الجاسوسية على الأثر.

وكانت تلك المهمة في غاية الصعوبة، لأن الحرب لم تستطع منع سيول السائحين من التدفق على فلوريدا من أول العام إلى آخره.

وذات يوم وفي «بالم بيتسن»، في أحد الأماكن الأكثر ترفاً على الشاطىء وهو مقصف يرتاده أصحاب الملايين فقط، بانت أولى الدلائل.

فقد دخل «جيم هنري» أحد رجال الـ (ف بي اي) إلى بار (الأوراغان). وكان مدير هذا البار ايرلندياً ومحارباً قديماً يدعى «بات أوكونور»، يعرفه «جيم» مطلب إليه أن يصغي بانتباه إلى أحاديث زبائنه، وأن يكتب إليه عن أول شيء يكون موضع اشتباه.

وأشار البارمان إلى «جيم» أن يجلس وينتظر. فأخذ «جيم» يتأرجح على مقعده الجلدي الأحمر، ويتأمل داخل العلبة خلال المرآة الكبيرة التي كانت بشكل جسم امرأة عارية.

ولقد تردد في نفسه للمرة المئة هذا السؤال:

●لماذا تكون هذه الأمكنة مظلمة دائماً، وخاصة بعد الظهر، حتى ليعوز المرء أحد الكلاب التي تقود العميان لكي يعرف طريقه فيها؟.

وقد ندت عنه تنهدة حين شاهد بحاراً في بزته البيضاء، يضع قطعة النقود في صندوق الموسيقى، فأضاءت الأنوار الزرقاء

والحمـراء، وتعالت أغنيـة: «أضواء المـرفأ» بينمـا كـان «بـات» في الجانب الآخر من البـار منهمكاً في عمـل أحد ديكـوراته التي تشبـه قوس قزح، ثم حمل الكوكتيـل إلى أحد الـزبائن، وجـاء يقف أمام «جيم».

وبعـد أن تصنع مسـح بـلاطتـه بخـرقـة مبتلة، أخـذ يتمتم لـ «جيم» سراً:

«جيم. لا بـد أن تبدو عليّ البـلاهـة، فلقـد طلبت أن أصغي إلى أحاديث الناس. فبالأمس كان هنالك شخص جالساً هنـا.. وقد أكون مخطئاً بحقه. فربما أنه لم يصنع شيئاً. إلا أنني لم أستطع أن أهضم ما قاله...

ماذا تريد أن تشرب ـ على فكرة؟»

فتبسم «جيم» قائلاً:

أعطني بيرة.. وقل لي ماذا كان يقول ذلك الشخص ففي هذه الأيام نهتم بكل شيء، حتى بالسفن التي تمخر عباب البحار».

فقال الرجل:

«هـذا الإنسان الكـريـه هـو في الخمسين من العمـر، وليست هذه هي المرة الأولى التي أرى وجهـه فيها. إنـه لم يرق أبـداً لي، فله فم قذر قاسي الكلمات. فهو ينظر إليك وكأنه لا يـرى أحداً. ثم هنالك شيء آخر ينفرني منه وهو أنه ما إن يهم بـالشرب حتى يغـدو عكـر المـزاج، مبـادراً إلى الاستفـزاز، وأنـا أكـره هـذا النـوع من الزبائن».

وسأله «جيم»:

●ما الذي قاله لك حتى غدا لك مريباً؟!.

فأجاب البارمان:

●●ليس شيئاً معيناً بالذات، فالبارحة مثلاً قام بإلقاء خطاب طويل. لقد قال بأن مكافحة الجاسوسية عندنا لا يصلح لشيء، وبأن رجال هذا الجهاز أبناء سفاح آتون من بوسطن، وليسوا جديرين بالعثور على كلب ضائع. وقال عنهم أيضاً أنهم جبناء مبعدون عن خط النار يفضلون العبث بالقلم على استعمال السلاح».

وألقى «بات» نظره حوله وخفض من صوته مردفاً:

«ولقد جاء على ذكر الغواصات، فلقد قال: إن الغواصات الألمانية تودي بالسفينة تلو الأخرى، تحت سمع وبصر أولئك الأغبياء.

إن ذلك الكلام لم يرق لي يا «جيم» هل تفهم لماذا؟. فقلت له: لا تقلق، فسنعثر عليهم أولئك الأوغاد. فهزيء مني ثم أفرغ قدحه وطلب آخر، وأثناء ذلك كان يتمثل ما قلت له على ما يبدو، لأنه انفجر فجأة قائلاً:

لا يوجد في كل اميركا إنسان قادر على مقاومة النازيين، فالأميركيون شعب أغبياء، وليس أمامهم سوى الخنوع عندما يصل هتلر ها هنا. فلقد كان علينا ألا ندخل الحرب، وأما الآن فتباً لنا.».

دخن «جيم» لحظة وقد لاذ بهدوء عميق، لقد كان رجل الأمن يفكر. ثم قال لـ «بات» أخيراً:

«بصراحة يا بات، أنا لا أستطيع أن أتصور بأن يكون جاسوس ألماني على هذا القدر من الغباء. فيتكلم هكذا علناً وبصراحة

كهـذه. سأقـوم بتحقيق صغير حـول هذا الشخص، ولن يحـدث له بسبب ذلك ضرر.

هل تعرف اسمه؟!

فقال بات بلهجة الاعتزاز:

«نعم بـالتأكيـد أعرفـه، إن اسمه: شـارل بترز، فهـو المديـر الجديد لفندق السيدة جيفن».

فصفر جيم بدهشة قائلاً:

«تقصد السيدة جيفن، تلك السيدة في بالم بيتسن، والتي لها كل تلك الأملاك على شاطىء البحيرة؟!

لا أعتقد أنهم سيسمحون لي بإجراء تحقيق عندها. وأخيـراً، شكراً لك».

إن رؤسـاء «جيم» قد اهتمـوا باقتـراحه بضـرورة الشـروع في تحقيق.

فالسيدة جيفن كانت أرملة ووارثة لثروة كبيرة، وتقوم بكثير من أعمـال البر. . . ولكنهـا قليلاً مـا ترى خـارج منـزلهـا. وليس ذلـك بمستغرب، فأملاكها شاسعة. أنها تتضمن عدة بلاجات وبحيرة ونهر صغيـر يصل البحيـرة بالبحـر. وقبـل التـوجـه للتحقيق مبـاشـرة مـع الأرملة، أراد رجال مكافحـة الجاسـوسية استجـواب المديـر السابق لفندق السيدة جيفن، والذي خلفه في عمله شارل بترز. ولكن ذلك الرجل الذي كان يدعى «ديتريسن» قد تعذر العثور عليه، فبدت هذه الواقعة الجديدة مريبة أيضاً.

وجـرياً على الأسلوب التقليـدي في مثل هـذه الأحوال، فقـد

تقـرر إرسال أحـد عناصـر جهـاز مكـافحـة الجـاسـوسيـة كي يقـوم بـاستقصاء في ممتلكـات السيـدة جيفن. وتلقى رجـل المخـابـرات الشـاب سـام مـور تعليمـاتـه بـذلـك من الـ (ف. بي اي) والجيش والبحرية أيضاً.

ولقـد أُعـطي أوراق كهـربـائي وأُلبس ثـوب العمـل الأزرق، وحمل معه حقيبة العدة وذهب يقرع بوابة السيدة جيفن. لقد فتحت البوابة، وبعد أن سأل البـواب الشاب عـدة أسئلة أدخله إلى أراضي السيدة وهو مستقل سيارته الناقلة الصغيرة.

لقد انتظر رؤساء سام مساء ذلك اليـوم تقريـراً منه، تقـريراً لم يتلقوه منه قط. وفي الصبـاح أيضاً كـان انتظارهم عبثـاً، فلقد غـاب الكهربائي مع سيارته ولم يعد يظهر أبداً.

لقـد اكتست أملاك السيـدة جيفن بعـد ذلـك في أعين رجـال مكافحة الجاسوسية رهبة خاصة. وانعقد مؤتمر ضم الأجهزة الثلاثـة لمكافحة الجاسوسية.

فـالجيش والـ (ف. بي. اي) كـانـا إلى جـانب القيـام بعمـل فـوري. لقد اقتـرحا محـاصرة الممتلكـات وتفتيشهـا من أولهـا إلى آخرها. وأما (البحرية) فعلى العكس قد ارتـأت انتظار وقـوع السيدة جيفن في الفخ مع الألمان الذين تقوم بمساعدتهم، وهذا هو الهدف من العملية، وأنه الأكثر أهمية من العثور على «سام مور».

ولقد انتصرت وجهـة «البحريـة» فوضعت مـراقبة على أمـلاك السيدة جيفن واتبع شارل بظل لا يفارقه.

ومـرت خمسـة عشـر يـومـاً لم تـأت نتيجـة. وقـد أغـرقت الغواصات الألمانية أثنـاء ذلك بـالطوربيـد سفينتين كبيرتين من سفن الحمولة وناقلة بترول.

ولقـد أمكن الـذين على الشـاطىء مشـاهـدة ألسنـة لهب الحرائق. لقد ألحّت الـ: (ف. بي. اي) على مداهمة السيدة جيفن ولكنهم في واشنطن كانوا يرون التربص والتريث.

ومن جيم هـري بالـذات جاء الـدليـل الجـديـد. فلقـد قـال لرؤسائه:

«لا أدري ماذا يعني هذا. فلقـد مرت عليّ خمسـة عشر يـوماً وأنا أتعقب شارل بترز. فهو في كـل يوم يقـوم بنفس الأعمال، ومن المستحيل ألا يكون لذلك معنى. فحين يصـل إلى المدينـة ليتبضع يشتري جريدته من بائع في زاويـة أحد الشـوارع ويشتريهـا دوماً من نفس البائع».

«أليس في ذلك كله شيء غير عـادي. إلا أن الغريب هـو أنه كلما وصل شارل بترز، يتوقف الصبي عن الصراخ بـالأخبار وينـادي نداءات مختلفة، فيقول له بترز حينئذ بضع كلمات، وينقده الدراهم ثم يعود الصبي إلى رفع صوته بعناوين الصحيفة».

لقد علق الملازم الأول بريفز على ذلك قائلاً:

«إنني اعترف بأن ذلك لا يبدو مـريباً أو مثيـراً للشك، ولكننـا مجبرون على عدم إهمال أية بادرة. فأنا سأضع سيارة إصغاء صغيرة تحتـوي على لاقطات وآلـة تسجيل، على مقـربة من بـائع الصحف هذا».

وبذلك عثر على الدليل المنتظر. فبعد ثلاثة أيام تمكن خبراء الرموز من حل الشيفرة الخاصة برسائل بائع الصحف. لقد كان هذا الصبي يعطي لمدير الفندق أسماء السفن الأميركية التي كانت تغـادر مرافىء فلوريدا. فتقررت مداهمـة ممتلكات السيـدة جيفن في الغد 1943. وهـاجمها ثـلاثون رجـلاً، فتحـوا الأبـواب وقفـزوا من فـوق

الحواجز منتشرين في المنزل، ولقد اكتشفوا على الفور تقريباً الأقبية المظلمة على البحيرة. قاعة كبيرة جداً تقع تحت الماء كانت تحتوي على ورشة للتصليح ومئات الأطنان من المازوت.

وأثناء ذلك كان جيم هنري والملازم الأول بريفز يبحثان عن السيدة جيفن صاحبة المنزل. فوجداها في الردهة تصغي إلى المذياع.

استقبلت السيدة الرجلين بكثير من الهدوء ودعتها للجلوس. وبدت في وقار سيدة كبيرة إلى حد ما عدم تحفّظ زائريها، ومع ذلك فهي مستعدة لتقديم الشاي لهما.

قال لها الملازم الأول مباشرة.

●إن لدينا بعض الأسئلة التي علينا أن نوجهها إليك أيتها السيدة جيفن.

فابتسمت السيدة المسنة بمودة. وقالت:

●●يسعدني جداً أن أذكر لكم كل ما أعرفه.

ففاجأها الملازم ريفز قائلاً:

●إذن قولي لنا أين توجد حالياً الغواصة الألمانية التي تنتظرينها؟!

وقد رام الملازم إرباكها بوحشية السؤال. إلا أنه أخطأ الظن، فلقد رفعت حاجبيها وبدت كما لو فوجئت قليلاً، وليس أكثر من ذلك، وقالت:

●●غواصة؟؟! أيها الملازم. قد يكون من الواجب أن تشرح لي عم تتحدث، فأنا أفهم شيئاً البتة.

فقال بريفز:

●أيتها السيدة جيفن. أليس صحيحاً أنك وزوجك من أصل ألماني؟

وأجابت السيدة:

●●طبعاً.

فأنا لا أجعل من ذلك سراً. وأنا فخورة جداً بأنني قد أصبحت مواطنة في الولايات المتحدة الأميركية. إلا أنني لا أتنكر لوطني الأول. أيها الشاب. ينبغي لكم أن تتخلصوا من وطأة هذه الأوهام الهستيرية نحو المتجنسين. فهتلر مجنون، وليس بسبب مبرر لكي تكونوا أنتم أيضاً على شاكلته.

فقال لها بريفز:

●إن لدي سؤالاً آخر أيتها السيدة جيفن:

ماذا جرى لمدير فندقك السابق؟. وأين أصبح؟!.

فهزت السيدة كتفيها قائلة:

«ولكنني لا أعرف شيئاً عنه أيها الملازم. إن ديتريسن قد غادرنا. كان يريد العودة إلى أحد المصانع الحربية، إما بدافع الوطنية أو بدافع مزيد من الكسب المادي، لا أدري. وأظن أنه كان يريد التوجه إلى أوهيو وربما إلى كاليفورنيا. لست أدري من الأمر شيئاً. إذا أردت قول الحق فأنا لم أسمع شيئاً عن أخباره.

فقال الملازم:

●سيدتي. أجدني مضطراً لتفتيش منزلك.

وعقبت السيدة جيفن:

●●إذا ما أخذت بعين الاعتبار الضجة التي يحدثها رجالك، فستكون قد تجاوزت حقاً أذني بذلك.

وجطلب منها الملازم:

●هل تريدين أن تتبعينا أيتها السيدة جيفن. إذا كان ذلك لا يزعجك؟.

ثم اتجه بريفز نحو القبو، حيث كان رجاله منهمكين في فتح باب صلد عنوة وبعد لأي فتح مصراعاه. فوجدوا في غرفة جيدة الإضاءة أكواماً من براميل المازوت، وشارل بترز جالساً أمام جهاز إرسال يعمل على الموجة القصيرة.

وحين وجد نفسه متلبساً بالجرم المشهود تناول مسدسه فأطلق عليه جيم هنري ثلاثة عيارات نارية فوقع الجاسوس الألماني على الأرض وقد فارق الحياة.

إن موت مدير فندق السيدة جيفن قد أفقدها رباطة جأشها تماماً، وأغمي عليها نصف إغماء، وتوجب حملها إلى الردهة.

فقال لها بريفز:

●آمل أنك ستتكلمين الآن. فإن بحيرتك تستعمل ملجأ لغواصات النازي، حيث تأتي لتتمون بالمازوت ويجري إصلاحها عندك. وأما بترز فيتصل بالنازي بواسطة جهاز الإرسال الذي عثرنا عليه. ونحن نعلم أنه في ليالي المد يصبح النهر الذي يصل بين البحر وبحيرتك صالحاً للملاحة.

وأنك لتجدين معي أن الإنكار لا يجدي فتيلاً.

لقد كانت السيدة جيفن وقد استولى عليها الرعب من مصيرها، تنظر في الفراغ دون أن تحير جواباً.

فقال لها بريفز:

●إنك ترين يا سيدة جيفن أنه إذا كان ما تأملينه هو انقاذ

الغواصة المقبلة. فذلك كما يتضح لـك أمر طفـولي. فأنت ضـائعة على كل حال، فلماذا لا تساعديننا؟.

من يدري. فلعل ذلك سيؤدي للنظر إلى وضعك بعين الرأفـة والعفو.

وأصابت كلمة العفو موقعاً من نفس السيدة المسنّـة، فأومـأت بما يفهم منه أنها على استعداد للإجابة على الأسئلة.

سألها بريفز:

●ماذا حدث لديتريسن؟!

فأجابت:

●●إن بترز هو الـذي قتله. فلقد كـان على علم بكل شيء، ونم عنه ما يوحي بعدم الاطمئنان إليه. وهو الآن مدفون في القبو.

●وماذا أجرى للكهربائي المرسل من قبلنا؟.

●●لقد وجده بترز يبحث هنا وهناك، فقتله أيضاً.

●وبائع الصحف؟.

●●كـان أحدهم يعـطي المعلومـات للغـلام لكي ينقلهـا إلى بترز.

لقـد كـانت السيـدة جيفن وقـد استــولى عليهـا الــرعب من مصيرها، تنظر في الفراغ دون أن تحير جواباً.

فقال لها بريفز:

«إنـك ترين يـا سيدة جيفن أنـه إذا كان مـا تأملينـه هـو إنقـاذ الغواصة المقبلة، فذلك كما يتضح لـك أمر طفـولي، فأنت ضـائعة على كـل حال، فلمـاذا لا تسـاعـديننـا؟. من يـدري، فلعـل ذلـك سيؤدي للنظر إلى وضعك بعين الرأفة والعفو».

وأصابت كلمة العفو موقعاً من نفس السيدة المسنّـة، فأومـأت بما يفهم منه على أنها على استعداد للإجابة على الأسئلة.

سألها بريفز:

●«ماذا حدث لديتريسن؟».

فأجابت:

●●«إن بترز هو الذي قتله. فلقد كـان على علم بكل شيء، ونم عنه ما يوحي بعدم الاطمئنان إليه. وهو الآن مدفون في القبو.

●«وماذا جرى للكهربائي المرسل من قبلنا؟

●●لقد وجده بترز يبحث هنا وهناك، فقتله أيضاً.

●وبائع الصحف؟!.

●●كان أحدهم يعطي المعلومات لكي ينقلها إلى بترز.

وقطع المحادثة جندي يقول:

«أيها الملازم بريفز، لقـد عثرنـا لتونـا على شيء ما في وسط البحيرة إنه أكبر من حجم غواصة».

فقال بريفز:

«قـل لهـم أن يطلبـوا طائـرة تقوم بقصف وسط البحيـرة فوراً. فهم لا يستطيعون الهرب، لأن البحر في حالة الجزر».

وبعد بضع دقائق، كان النفر القليل المجتمع في ردهة السيدة جيفن، ينصت إلى أزيـز الـطائـرات تتلوه أصـوات قنـابـل. وسيقت السيـدة جيفن إلى مكاتب إدارة مكـافحة الجـاسوسيـة لاستجوابهـا. وقام الرجال الضفادع بتفتيش قعر البحيرة.

ولقد وجدت على سطح القعر غـواصة ألمـانية متمـزقة. كمـا

وجدت جثث الألمان الموتى غرقاً أو خنقاً بين أنقاض الغواصة.

وأوردت فـراو جيفن في إفـادتهـا وبمعـرض التبـريـر، روابط عائلية. تعود بناء على أقوالها إلى بلوخـر وشارلمـان مروراً بفـورنغ. وحكم عليهـا بـالسجن ثـلاثين عـامـاً، ولكنهـا شنقت نفسهـا في زنزانتها. وأما الصبي بائع الصحف فقد أقنع المحكمة ببراءته. وبأن العبارات التي كان ينقلها دائماً لمدير فندق السيدة جيفن، كان يلقنه إياها صحفي في الإذاعة. وإن هذا الصحفي قـد أقنعه بـأنها عبـارة عن حيلة إذاعية وصدقة الغلام.

ويعمل بائع الصحف اليوم كرئيس تحريـر في صحيفة محليـة صغيـرة في فلوريدا. ولا يـزال يروي عن طيب خـاطر، إلى رفـاقـه ومعارفه، كيف كان طرفاً في شبابه في شبكة للجاسوسية.

الفهرس


دار الحكمة
بيروت
دمشق


Bibliotheca Alexandrina
0252771